العالم كما رأيته:
اليونان

فرج جبران

العالم كما رأيته: اليونان

تأليف
فرج جبران

هنـــداوي

العالم كما رأيته: اليونان

فرج جبران

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٠ ٢٧٩٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

اليونان جغرافيًّا	٧
اليونان بين الأمس واليوم	١١
أسطورة الطوفان	١٥
مهد الفلسفة والعلوم السياسية	١٩
عناصر القومية اليونانية	٢٣
لمحة من تاريخ اليونان	٢٩
كيف استقلت اليونان؟	٣١
بلاد السياحة والآثار	٣٧
بين أنقاض الأكروبول	٤٥
جولة في أثينا	٤٩
بلاد عريقة في الديمقراطية	٥٣
اليونان الحديثة	٥٩
تقدم الإنتاج الزراعي	٦٣
التصنيع في اليونان	٦٥
في اليونان: نشأت الألعاب الأوليمبية	٧١
اليونان وقبرص	٧٥
العلاقات بين العرب واليونان	٨٥
الشاعر واليونان	٩١

اليونان جغرافيًّا

تقع اليونان في جنوب شبه جزيرة البلقان، ويتبعها معظم جزر بحر إيجة، وعند الطرف الجنوبي من هذا البحر تقع جزيرة كريت، أكبر الجزر اليونانية وأهمها، ونهر مارتزا الأدنى يعد حدًّا طبيعيًّا بينها وبين تركيا، كما أن بحر إيجة يفصلها عن آسيا الصغرى، وتبلغ مساحتها نحو عُشر مساحة الإقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة[1] ويبلغ عدد سكانها نحو عشرة ملايين نسمة، معظمهم يسكنون في الأقاليم الساحلية والأودية الخصيبة.

وسطح اليونان جبلي على العموم، ويقع في اليونان الجزء الأدنى من كل من وادي نهر فاردار ووادي نهر ستروما، وليس باليونان سهولٌ متسعة سوى سهل تساليا؛ حيث توجد أوسع الأراضي الزراعية باليونان.

وتمتاز اليونان بكثرة تعاريج سواحلها، ولا سيما في شبه جزيرة المورة، التي تشبه في شكلها العام يدًا ممدودة الأصابع، ويكاد خليج كورنث الطويل يفصل شبه جزيرة المورة عن باقي اليونان، وهناك برزخ ضيق شقت فيه قناة كورنث فوصلت خليج كورنث ببحر إيجة.

وتتبع اليونان في مناخها ونباتها إقليم البحر الأبيض المتوسط، وأدفأ الجهات وأغزرها مطرًا تقع في الغرب، ونظرًا لامتداد الجبال الغربية من الشمال إلى الجنوب، قلَّ سقوط المطر في باقي أنحاء اليونان، ومناخ الأجزاء الداخلية باليونان أبرد في الشتاء، وأقل مطرًا من مناخ الجهات الساحلية ولا سيما الغربية منها.

---

[1] تبلغ مساحة الإقليم الجنوبي نحو مليون كيلومتر مربع.

والأراضي الزراعية باليونان قليلة المساحة، ويقع معظمها بالسهول الساحلية والأودية، وكانت الزراعة هي المهنة الرئيسية للسكان، ولكن بدأت أخيرًا حركة تصنيع هائلة، وأهم الغلَّات الزراعية الطُّبَّاق والزيتون والفواكه، مثل: التين والبرتقال والليمون والعنب، كما يزرع القمح والشعير، ويربَّى كثير من الضأن بالمراعي الجبلية؛ ولهذا فالصوف هناك غلة هامة.

وقد قامت في اليونان صناعات كثيرة مرتبطة بالغلات الزراعية والحيوانية، مثل: تجفيف العنب وصناعة النبيذ واستخراج زيت الزيتون، وصناعة الصابون ودبغ الجلود وعمل الجبن ونسج الحرير وصناعة البسط، ويشتغل سكان السواحل بصيد السمك والملاحة.

ويشتغل اليونان أيضًا بالتجارة، وهي المهنة التي ورثوها عن أجدادهم الإغريق القدماء، الذين وَلَّوْا وجوههم شطر البحر لقلة مواردهم الزراعية، فاشتغلوا بالملاحة من زمنٍ قديم، ولقلَّة موارد اليونان الطبيعية لجأ كثيرٌ من أهلها إلى الهجرة إلى أنحاء العالم المختلفة؛ طلبًا للرزق، وقد نزل في مصر عددٌ كبير منهم اشتغلوا في أعمالٍ مختلفة، وقد أَثْرَى الكثير منهم حتى أصبحت الجالية اليونانية بمصر أغنى الجاليات الأجنبية وأكبرَها، هذا وقد أقبل كثيرٌ من المصريين في السنوات الأخيرة على زيارة اليونان، ولا سيما الاستشفاء بمياه لوتراكي المعدنية وغيرها من المدن.

وأثينا هي العاصمة وأكبر المدن، وتشتهر بآثارها التاريخية، رمز الحضارة الإغريقية القديمة التي كانت أثينا أهم مركز لها في بلاد الإغريق، وأشهر هذه الآثار: معبد الأكروبول Acropolis، الذي كان معبدًا لأثينا إلهة الحكمة عند الإغريق القدماء، وهو قائمٌ على ربوةٍ عالية تشرف على المدينة، وثغرها بيريه Piraeus وهي من الثغور التجارية الهامَّة بحوض البحر الأبيض المتوسط، ولها ميناء طبيعي، وبينها وبين الإسكندرية مواصلات بحرية منتظمة.

وسلانيك أهم مدن اليونان بعد العاصمة.

اليونان بين الأمس واليوم

سافرت إلى بلاد اليونان لأول مرة في عام ١٩٣٤م، فوجدت فيها بلادًا رخيصة يحصل المصري فيها على عدد كبير من الدراخمات نظير كل جنيه يقدمه؛ ولذلك فقد كانت تستهوي في تلك السنوات، عددًا كبيرًا من المصريين الذين كانوا يترددون على مصايفها الجبلية والبحرية، وعلى مدن المياه المعدنية المنتشرة في ربوعها.

ولم تكن المسافة التي تفصل بين ميناء الإسكندرية وميناء بيريه، تستغرق في البحر أكثر من ٣٦ ساعة، وهي الآن أقل من هذا. أما المسافة من بيريه إلى أثينا عاصمة اليونان، فيقطعها قطار يشبه «المترو» في ١٥ دقيقة تقريبًا.

كانت المقاعد في أكبر مشارب المدينة مصنوعة من القش، ولم يكن في إمكان أحد أن يقارن بينها وبين المشارب الكبيرة في القاهرة أو الإسكندرية، ولكن طبيعة اليونان الجبلية وهواءها المنعش، ومياهها الزرقاء الهادئة، وسماءها الصافية، كل هذه الأشياء كانت من المغريات على زيارتها.

كانت أسعار الإقامة وأسعار الحاجيات رخيصةً جدًّا، لا يكاد يصدِّقها أبناء الجيل الحاضر إذا سمعوا بها، ولكن أهم من الأسعار الرخيصة كان هناك الشعب الكريم المضياف، الذي يرحب بالمصريين ترحيبًا قلبيًّا ويعمل على تسهيل إقامتهم.

كان اليوناني إذا عرف مصريًّا في أثينا أو في غيرها من المدن اليونانية، أسرع إلى تحيته والترحيب به، وسؤاله عما إذا كان يحتاج إلى مساعدة، ولم يكن اليوناني يرحب بالمصري باعتباره أجنبيًّا، بل كان يرحب به باعتباره أخًا له، فقد كانت الجالية اليونانية، وما زالت حتى الآن، أكبرَ جالية أجنبية في مصر، كما أن اليوناني كان الأجنبي الوحيد في مصر، الذي لم يقصر إقامته على العاصمة والمدن الكبرى.

لقد تغلغل اليونانيون في مصر حتى وصلوا إلى أصغر القرى؛ حيث أقاموا بين الفلاحين وعقدوا معهم أواصر الصداقة، ولا أذكر الآن من الذي قال: إنك لو ذهبت إلى أي مكان في الصحراء القفراء ورفعت حجرًا، لوجدت تحته يونانيًّا!

أذكر أنني تقدمت في أثينا من جندي المرور اليوناني أسأله عن الطريق المؤدي إلى الفندق فحدثته بالفرنسية، ونظر إليَّ الرجل، ثم سألني بالعربية: إنت مصري؟

فذهلت وأجبته: نعم! ولكن كيف عرفت …

وابتسم الرجل وقاطعني قائلًا: طيب يا أخي، تكلم بالعربي!

وعرفت أن الرجل كان من اليونانيين الذين عاشوا سنواتٍ في مصر.

وعدد اليونانيين الذين وُلدوا في مصر، أو عاشوا فيها، أو مرُّوا بها كبير جدًّا، واليوناني الذي لم يولد في مصر أو يَعِشْ فيها أو يمر بها، لا بد أن يكون له فيها بعض الأهل أو الأقارب، أو الأصدقاء أو الذكريات!

وإنهم جميعًا لَيذكرون هذه البلاد المضيافة بالخير، ويحفظون لها الجميل، ويرجون لها التقدم والاستقرار، فقد فتحت لهم ذراعيها في كل وقت، واستقبلتهم كما تستقبل أبناءها، وسهلت لهم سبل الحياة، فاقتحموا ميادين الأعمال والتجارة والزراعة والصناعة، وسجَّل معظمهم نجاحًا مرموقًا في هذه الميادين، فكان منهم على سبيل المثال: أشهر منتجي الكحول «السبيرتو» والبيرة والنبيذ، وأشهر زارعي الكروم.

وعدتُ بعد ذلك إلى اليونان في عام ١٩٤٨م، فوجدت البلاد لا تزال متأثرة بما أصابها خلال الحرب العالمية الثانية، وقد أتيحت لي الفرصة عامئذٍ فرأيت الجهود الضخمة التي تُبذل في سبيل شق طرق جديدة، وفي سبيل إعادة فتح قناة كورنث للملاحة، بعد أن سدت أثناء الحرب.

وكان مما راعني خلال هذه الزيارة التضخُّم النقدي الذي كانت تعانيه اليونان، وقد حدث في إحدى الليالي أن تناولْتُ العشاء مع أربعة من الأصدقاء، وكان عشاءً متواضعًا من النوع الذي يساوي في مصر ٣٠ أو ٤٠ قرشًا للفرد الواحد، ومع ذلك فقد قدم لي الجرسون كشف الحساب، فإذا به ٣٦٨٠٠٠ دراخمة بخلاف البقشيش، فإذا اقتصرت على بقشيش قدره ١٠٪ كان يجب أن تضيف إلى الحسبة ٣٦٨٠٠ دراخمة، فيصل الحساب إلى ٤٠٤٨٠٠ دراخمة، أو ما يقرب من نصف المليون دراخمة!

ومع ذلك كان نصف المليون دراخمة المذكور، لا يوازي بعملتنا المصرية أكثر من ستة جنيهات!

وهكذا كنت تستطيع أن تصبح مليونيرًا في بلاد اليونان، إذا كنت تحمل اثني عشر جنيهًا مصريًّا فقط!

فقد كان الجنيه المصري عامئذٍ يساوي نحو ٨٥ ألف دراخمة، ولكنك مع ذلك تشعر أنك مليونير فقير؛ لأن آلاف الدراخمات أو ملايينها كانت تتسرب من الجيب بسرعة البرق!

وزرت اليونان بعد ذلك مرة ثالثة في صيف عام ١٩٥٤م، وخرجت يوم وصولي من الفندق، وأنا أحس بأنني من أصحاب الملايين، ولكن قبل خروجي مررت على حارس الباب وخطر لي أن أسأله: كم يساوي فنجان القهوة في المشرب القريب من هذا الفندق!

وهز الرجل رأسه ثم قال: ٢ أو ٣ دراخمة!

ودهشت لهذا الجواب وظننت الرجل مجنونًا؛ إذ كان معنى هذا أن أشرب ٤٢٥٠٠ فنجان قهوة بما يوازي الجنيه المصري! وقلت في نفسي: «لقد أصبحت هذه البلاد أرخص بلاد في الدنيا، إنها جنة عدن!»

وأردت أن أتأكد مما يقول الرجل، فأخرجت ورقة من فئة الألف دراخمة ثم سألته: هل معنى هذا أنني أشرب ٥٠٠ فنجان قهوة بهذه الورقة؟!

وضحك الرجل ثم أمسك بالورقة المالية، وأخرج من جيبه قلمًا ضرب به على الأصفار الثلاثة المطبوعة إلى يمين الواحد، وردها إلي قائلًا: هذه الأصفار كلها لا قيمة لها!

فقلت له ضاحكًا: ولكنها أصفار على اليمين!

فأجاب: سيان، على اليمين أو الشمال!

ومعنى هذا أن الألف دراخمة = ١ فقط.

أو بمعنى آخر أنه يجب أن أدفع في فنجان القهوة ٣٠٠٠ دراخمة!

وذهب الرجل بعد ذلك فأحضر لي بيانًا صغيرًا مطبوعًا من منشورات مصلحة السياحة اليونانية، وفيه أن الحكومة اليونانية قد اعتزمت طبع أوراق نقد جديدة من فئة ١٠ و٢٠ و٥٠ دراخمة، وهي وإن كانت في الحقيقة ١٠٠٠٠ و٢٠٠٠٠ و٥٠٠٠٠، إلا أن الأصفار لن تظهر فيها، وجاء في النشرة أن حذف الأصفار الألفية، لا يؤثر في الأسعار بأي حالٍ من الأحوال!

وعندئذٍ — فقط — علمت قيمة ملايين الدراخمات التي أحملها!

وكان أول ما اصطدمت به في شوارع أثينا عامئذٍ، تلك السيارات الفاخرة التي تعمل بوصفها سيارات «تاكسي».

إنني لم أر مثلها في لندن ولا في باريس، ولا في بروكسل ولا في أمستردام، ولا في أي بلدٍ آخر في أوروبا، إنها السيارات الأمريكية الفاخرة التي تعادل سيارات التاكسي التي تستعمل في نيويورك في ضخامتها وأناقتها ونظافتها!

وتعددت بعد ذلك مظاهر الرخاء في العاصمة اليونانية.

كانت اليونان بعد الحرب العالمية الثانية، قد عانت الكثير؛ نتيجة عدم استقرار النقد، وتعرضت طيلة عشر سنوات لتضخمٍ خطير في النقد وارتفاع في الأسعار؛ نتيجة لازدياد الطلب على السلع وتقييد الواردات.

ولكن في سنة ١٩٥٣م خفضت قيمة الدراخمة بنسبة ٥٠٪ من سعرها الرسمي، وتحررت الواردات من قيودها، وبدأ الاقتصاد اليوناني يدخل مرحلة جديدة، تتميز باستقرار النقد، واستمر هذا التقدم حتى بلغ أعلى مستوى له خلال عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧م؛ إذ بدأت الودائع تتدفق على البنوك، وزاد احتياطي الدولة زيادة ملحوظة، وتوطد سعر الدراخمة، وبدأ يرتفع في أسواق النقد الدولية، وزال التضخم، وبدأ الاقتصاد يأخذ أوضاعه الطبيعية.

وهكذا انتعشت اليونان وبدأت عهدًا جديدًا من الاستقرار.

وسيحاول المؤلف في صفحات هذا الكتاب أن يرسم لك صورة من تاريخ وحياة هذا الشعب المجاهد المكافح، في الماضي والحاضر، فلقد كان (والحق يقال) شعبًا وفيًّا، وقد أثبت هذا الوفاء في مختلِف المناسبات والظروف والأزمات، وقد آثر أن يقف بجانب العرب دائمًا، ولا عجب في ذلك فإنه يحس بإحساسهم ويشعر بشعورهم، والفضل في هذا للمغتربين من أفراد هذا الشعب، ممن عاشوا سنواتٍ طويلةً بين العرب، ثم عادوا إلى بلادهم وهم يحملون له أطيبَ الذكريات وأخلصَ الود؛ بسبب ما لقوه من أهله من كرم الضيافة والحب والصداقة.

أسطورة الطوفان

كان الرومان أول من أطلق اسم اليونان على هذا الجزء الصغير من العالم الذي يقع في شبه جزيرة البلقان، وهو مشتق من اسم أولى القبائل التي اصطدموا بمقاومتها عندما غزوا تلك البلاد، أما الاسم القديم للبلاد فكان هيلاس، وكان يطلق على سكان هذه البلاد الهللينيين، وتتكوَّن البلاد اليوم من مجموعةٍ كبيرة من جزر بحر إيجة، ومن جزيرةٍ كبيرة تقع في جنوب هذا البحر وهي جزيرة كريت.

ولم يكن الإغريق أول من سكن شبه الجزيرة المسماة باسمهم، بل سكنها قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرنًا قبائل من الجنس الإيجي، تحضروا وأبحروا إلى مصر وغيرها، وأقاموا المدن ونظَّموا الجيوش.

وأخيرًا نزح من الأجزاء المحيطة ببحر قزوين قومٌ من الجنس الآري، الذي تنتمي إليه معظم شعوب أوروبا وبلاد الهند، وكانوا أقل في درجة حضارتهم من الإيجيين، واستولَّوْا بالتدريج على ساحل آسيا الصغرى، وجزائر إيجة وأراضي أوروبا الوسطى، ثم اختلطوا بالإيجيين فنشأ من هذا الاختلاط الشعب اليوناني أو الهللينى الذي صنع التاريخ.

ورغم أن التاريخ لا يعي شيئًا عن ذلك الشعب في بَدْءِ نشأته، فقد أحاط الإغريقُ أنفسَهم بالأساطير الكثيرة، التي خلَّدها تاريخهم وأهمُّها أسطورة الطوفان.

وخلاصة هذه القصة أن بؤس الإغريق لما بلغ مبلغًا لم يسبق له مثيل في عهد حاكم يدعى «ديوقاليون»، فلما رأى كبير الآلهة وربُّ الأرباب «زيوس» أن الحالة تتطوَّر من سيِّئ إلى أسوأ، رغب في القضاء على ذلك الجنس بأسره، فأرسل عليهم ماءً من السماء هطل على تساليا، حتى غمر الطوفان كل البلاد وهلك الناس جميعًا، ونجا «ديوقاليون» وزوجته «بيرا» بأن صنعا لنفسيهما قاربًا، بقيا فيه على الماء تسعة أيام بلياليها حتى قذف بهما اليمُّ أخيرًا إلى قمة «بارناسوس» فانتظرا حتى انحسر الماء، ووجدا أنهما وحيدان، فحزنا وابتهلا

إلى إله الآلهة «زيوس» أن يعمر الأرض، فجاء إليهما «هرميس» رسول الآلهة وأمرهما أن يرفعا الأحجار من الأرض، وأن يلقيا من فوق كتفيهما، فلما فعلا ذلك استحالت الأحجار التي رماها «ديوقاليون» كلها إلى رجال، أما التي ألقت بها زوجته فتحولت إلى نساء.

وهكذا استوطن هذه البلادَ شعبٌ جديد، ورزق الله «ديوقاليون» ولدًا أسماه «هيلين»، وحكم ذلك الجيش الجديد بعد والده، وأطلق عليه اسم الجنس الهلليني نسبة إليه!

ولم يحتل الآريون شبه الجزيرة دفعة واحدة، بل جاءت قبائلهم تباعًا تسعى وراء الرزق، وكانت أقدم القبائل استيطانًا لبلاد الإغريق قبيلة «الأخيين»، وتلتها قبيلة «الدورين»، الذين قدموا إلى بلاد الإغريق قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرنًا، وأسَّسوا مدينة اسبرطة العظيمة، وبعد هذا بما يقرب من أربعة قرون، جاءت قبائل «الأيونيين» وانتشر الجميع في أنحاء شبه الجزيرة والجزر المحيطة بها.

ولقد تأثر الشعب الهلليني بحضارة كريت، التي ازدهرت في «كنوساس» قبل الميلاد بأكثر من ثلاثين قرنًا، والتي يقول المؤرخون: إنها استمدت من الفراعنة؛ لوجود تشابه بين لغة كريت واللغة الهيروغليفية، كما أن الإغريق استفادوا من الفينيقيين، فنقلوا عنهم صناعة السفن وركوب البحار.

وقد اعتمد الإغريق، بعد أن نزلوا في شبه الجزيرة على الرعي، ولم يكن لهم حكومة منظمة، تجمع شملهم، وتوحد كلمتهم. وظلت الحال كذلك زمنًا طويلًا أخذوا بعدها يزرعون الأرض، ويستقرون فيها، ويقيمون لأنفسهم مساكن ثابتة، فنشأت بذلك القرى، وخضعت كل قرية منها لرئيسٍ يعاونه جماعة من ذوي الرأي فيها. ارتقت بعض القرى واتَّسعت، فصارت مدنًا عامرة، لكلٍّ منها حكومة مستقلة، وجيش خاص وآلهة مقدسة، ويطلق على كل من هذه المدن اسم «المدينة الحكومية».

وبنشأة المدن الحكومية مرَّ تاريخ بلاد اليونان بعهدٍ انقسمت فيه إلى ولاياتٍ صغيرة، قوام كل ولاية منها المدينة الحكومية، ويرجع ذلك إلى ما يقرب من ستة قرون قبل الميلاد.

وكانت المدينة الحكومية تشمل بلدًا محاطًا بأسوارٍ منيعة، خارجها منطقة واسعة من الحقول تحيط بهذه المدن التي كان لكل مدينة منها قوانينها وجيشها وحكومتها.

وقد كان للعوامل الطبيعية أكبر الأثر في حضارة الإغريق؛ فإن الجبال الكثيرة ساعدت على تقسيم البلاد إلى هذه الوحدات الصغيرة التي سارت كل وحدة منها في سبيل الرقي والتطور مستقلة عن غيرها.

وعلى هذا نشأت حكوماتٌ عديدة، وتأخَّر نشوءُ شعبٍ موحَّدٍ له حكومة واحدة.

وساحل بلاد اليونان كله تعاريج وفجوات صالحة لرسو السفن، أضف إلى ذلك وجود الجزر المبعثرة في البحر الأيوني في الغرب وبحر إيجة في الشرق، ثم إن أرخبيل إيجة يتصل بالساحل الشرقي لآسيا الصغرى؛ لهذا كله لم يكن غريبًا أن يشتغل اليونانيون — بحكم موقع بلادهم — بالتجارة والملاحة والاستعمار.

وفوق هذا كله فالمناخ معتدل، والأرض خصبة، والمناظر ساحرة جميلة؛ لذا كانت بلاد اليونان بطبيعتها مرتعًا خصبًا لقيام جنس متحضر، ترك من بعده مدنية خالدة، هي التي أخذت عنها أوروبا الحديثة أصول نهضتها.

وهكذا كان للطبيعة أثرُها في انقسام بلاد الإغريق، واتخاذ المدن الحكومية أساسًا للمجتمع، حتى أصبحت كل مدينة دولة قائمة بذاتها؛ بسبب ضيق البلاد، وعزلة أجزائها بواسطة الجبال العالية والخُلجان الكثيرة، ومن أشهر المدن الحكومية الإغريقية أثينا واسبرطة.

وقد اتجهت عناية اسبرطة إلى الأمور الحربية؛ فكان أهم ما يشغل أهلها التدرُّب على القتال، والتأهُّب للحرب، حتى صارت اسبرطة أشبهَ بثكنة عسكرية، وكانت الحكومة هي القائمة بأمر التربية الاسبرطية، التي استهدفت تخريج رجال أشدَّاء يدافعون عن الوطن.

أما أثينا فاهتمَّتْ بتثقيف العقول، والعناية بالعلوم والفنون والآداب؛ لذلك كان فضلها عظيمًا على العلم والمدنية؛ إذ أقامت ببلاد الإغريق حضارة عظيمة، تعدُّ منبع الحضارة الأوروبية، وقد ازدهرت حضارة الإغريق في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

ولا يمكن أن نجد وصفًا للإغريق في عهود بداوتهم الأولى أدقَّ مما جاء في قصائد الشاعر هوميروس؛ فهو يصوِّرهم يرعَوْنَ الأغنام والماشية، ويَفلَحُون الأرض، ويصيدون، ويحاربون، ويُبحرون، ثم يتحدَّث عن عقائدهم الدينية وعواطفهم النفسية؛ فيعدِّد آلهتهم، ويبيِّن إلى أي حدٍّ كانوا يقاسون في سبيل الحب والحرية والوطن والواجب، وإلى أي حدٍّ كانوا يحترمون النساء.

وأهم ملامح هوميروس الشعرية «الإلياذة» و«الأوديسية»، وتقص الإلياذة أخبار اليونان في حربهم مع أهل تروادة بآسيا الصغرى، أما الأوديسية فتتضمَّن أخبار القائد اليوناني العظيم «أوديسياس» بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها، وتصف ما لاقاه من الأهوال والمخاطر وهو في طريقه إلى بلاده.

وناظم هاتين القصيدتين هو شاعر اليونان الخالد هوميروس، وتعتبر قصائده الروائية البذرةَ الأولى في البلاغة اليونانية ودِعامةً للأدب اليوناني، ويرجع تاريخه إلى القرن العاشر

أو التاسع قبل الميلاد، وكل ما يعرف عنه أنه كان ضريرًا في أُخريات أيامه، ولما لم تكن الكتابة شائعةً في عصره، فإنه كان يحفظ شعره عن ظهر قلب، وينشده على الناس وهو يعزف على قيثارته، متنقلًا من بلدٍ إلى آخر، أو يلقِّنه لجماعات المنشدين، الذين يُحيون الحفلات الخاصَّة والأعياد العامة، لإلقائه أو غنائه هناك.

وانتقل الشعر بوساطة المنشدين من جيلٍ إلى جيل، ولم تدوَّن الملحمتان إلا في عهد «سولون» المشرِّع الأثيني العظيم، الذي ولد حوالي سنة ٦٣٩ق.م.

ورغم أن ملحمتي الشاعر «هوميروس» وقصائده ملأى بالأساطير الخرافية، فقد أمكن للمؤرخين أن يستنبطوا منها أن سكان اليونان، كانوا يعرفون طرق زراعة الأرض وإقامة المدن المحصنة، وأنهم كانوا يتكلمون لغة، ولكنهم لم يتعارفوا ويتحدوا لوجود الحواجز الطبيعية، التي تعوق اتصالهم كالجبال والخلجان.

ورغم وجود هذه الحواجز الطبيعية، كانت تربط اليونان اجتماعات مقدسة عامة، يحجون فيها إلى معابد الآلهة في مواسم خاصة.

فمثلًا كان يعقد ممثِّلو كل الولايات اجتماعًا كبيرًا، مرة في كل أربعة أعوام بمكانٍ مرتفع يسمى «أوليمبيا»؛ حيث أقيم معبد كبير الآلهة زيوس فتقدم القرابين والضحايا، وتجري الألعاب المختلفة وأهمها: سباق على الأقدام، وسباق الخيل، وسباق العربات، والملاكمة والمصارعة، وكان الفوز في هذه الألعاب يعتبر شرفًا رفيعًا، مع أن الجائزة التي تقدم للفائز، ما كانت تعدو إكليلًا مصنوعًا من غصن الزيتون، وقد كانت هذه الألعاب هي نواة الألعاب الأوليمبية، وما زالت هذه الألعاب الدولية التي تقام كل أربع سنوات، وتشترك فيها جميع دول العالم تسمى بالأوليمبية، ومن أهم المجامع الدينية الاحتفال بالإله أبولو في معبده بجزيرة ديلوس.

وكانت الروح الوطنية قوية عند الإغريق، وهي التي جعلتهم يصدُّون الفرس فيما بعد، كما دفعت الإسكندر المقدوني إلى مد إمبراطوريته حتى بلاد الهند شرقًا.

وهكذا كانت الألعاب الأوليمبية والمجامع الدينية، واللغة وأشعار «هوميروس» من مظاهر الوحدة الهللينية.

مهد الفلسفة والعلوم السياسية

كان اليونان أول من اشتغل بالنظريات السياسية والفلسفة السياسية كعلمٍ من العلوم، ووصلوا فيها إلى استنتاجاتٍ معينة؛ نتيجة مشاهدات ومقارنات مختلفة؛ وبذلك أقاموا الفلسفة السياسية على أساسٍ علمي.

وقد قامت قبل اليونان عدَّةُ ممالك وإمبراطوريات، وفي كل واحدة من هذه الممالك القديمة، استقرَّتْ أنظمة حكومية على درجةٍ عظيمة من الرقيِّ والتقدُّم، غير أن هذه الأنظمة رغم وجودها عمليًّا، لم يظهر كاتبٌ أو باحثٌ بين الشعوب التي نشأت فيها لكي يشتغل ببحث النظريات والقواعد الأساسية والفلسفة التي تقوم عليها الدولة، فإننا لا نجد مثلًا من يبحث أنواع النظم الحكومية الموجودة في البلاد المختلفة، ومزايا وخصائص كل نوعٍ منها، والقواعد الأساسية التي يجب أن تقوم عليها علاقة الحكومة بالشعب أو الحاكم بالمحكوم.

بين هذه الشعوب القديمة التي سبقت اليونان كانت الأنظمة الحكومية قائمةً على أساس الملكية المستبدة المطلقة، التي فيها يحكم الملك، والشعب يخضع ويطيع، دون أن تكون في يد الشعب ضماناتٌ من القوانين والأنظمة الدستورية؛ لحماية هذا الشعب من سلطة الملك الغاشم.

أما عند اليونان فإننا نقابل كثيرًا من الفلاسفة الذين اشتغلوا بالبحث النظري والفلسفة الخاصة بنشأة الدولة، وكيفية تكوينها، والأنظمة الحكومية التي تقوم فيها، وفي واجبات الشعب نحو الحكومة، وواجبات الحكومة نحو الشعب.

يمكننا أن نقابل في اليونان عددًا من هؤلاء الفلاسفة بين السفسطائيين، كما أن أبحاث أفلاطون وأرسطو — والأخير بوجهٍ خاص — وصلت إلى درجةٍ كبيرة من التقدم

العلمي في بحوث الفلسفة السياسية، حتى أُطلِق على أرسطو اسم «مؤسس علم الفلسفة السياسية» بالمعنى الصحيح؛ ولذلك اعتبر اليونان أصحاب الفضل الأول على الفلسفة السياسية بمعناها الصحيح.

وإذا أردنا الإلمام بحقيقة العوامل التي ساعدت اليونان على ذلك، لوجدنا أن اليونان أكثر من أي قومٍ آخرين في التاريخ القديم، كان لديهم مجالٌ واسعٌ لممارسة التجارب السياسية؛ وذلك راجع لطبيعة بلادهم التي أَخَّرَتْ قيام وَحْدَةٍ سياسية بينهم، وقسمتهم إلى وحدات سياسية صغيرة أو ولايات منفصلة عن بعضها، كل واحدة منها وحدة سياسية قائمة بذاتها، لها أنظمتها الاجتماعية والسياسية والدستورية الخاصة بها.

وقد ساعدت هذه الحالة على ظهور مجموعة من الأنظمة السياسية والحالات الفكرية، استمد منها المشتغلون بالبحث السياسي النظري، بعد نضوجها، المواد الأولية التي أَسَّسوا عليها بحوثهم؛ ولهذا السبب تم الجزء الأكبر من بحوث العلوم السياسية في القرنين الخامس والرابع (على الخصوص) قبل الميلاد.

كذلك كان تعدُّد الأنظمة الحكومية في الولايات اليونانية؛ مما شجع الفلاسفة اليونان على عمل مقارنات بين هذه الأنظمة ومزاياها؛ مما أدى إلى الاشتغال بتحليل هذه الأنظمة إلى عناصرها الأولية، وهذا بدوره تطرَّق بهم إلى البحث في مسائل مختلفة، مثل: أصل الدولة ونشأة الدولة، وغير ذلك من موضوعات البحث السياسي النظري؛ ولذلك فقد اشتغل عدد من الفلاسفة اليونان ببحث النظريات المختلفة المتعلِّقة بأصل الدولة، ومنها: نظرية الغلبة، ونظرية الزعامة الأبوية التي أخذ بها أرسطو، وكذلك نظرية التعاقد التي يرجع منشؤها إلى اليونان، والتي نادى بها السفسطائيون في القرن الخامس، وأفلاطون في النصف الأول من القرن الرابع ق.م.

ومما يستحق الذكر أيضًا أن اليونان بطبيعة بلادهم، كانوا قومًا يميلون إلى الأسفار والهجرة والاستعمار، وكانت لهم مستعمرات عديدة على سواحل آسيا الصغرى وسورية وجزر البحر الأبيض، والأرخبيل وكريت وإيطاليا وصقلية، وقد أدى هذا إلى توسيع مدارك اليونان فيما يتعلق بالأنظمة الحكومية السائدة في البلاد الأخرى، واقتباس تجارب سياسية جديدة ساعدت الفلاسفة اليونان على التوسُّع في بحوثهم بميدان النظريات السياسية.

أما طبيعة البلاد وانتشار الجبال فيها، فقد خلق من اليونان شعبًا يميل إلى الحرية ولا يخضع بسهولة لاستبداد الملوك، بعكس أهل البلاد التي ينبسط فيها السطح، فتتصل جميع أقسامها اتصالًا وثيقًا، ويرتبط أهلها ارتباطًا شديدًا بالأرض التي يعيشون عليها

من الوجهة السياسية والاجتماعية؛ مما كان يساعد الملوك في مثل هذه البيئات على إقامة سلطة استبدادية مطلقة لأنفسهم.

ومن الطبيعي ألَّا ينفسح المجال أمام الشعوب في مثل هذه البيئات؛ للبحث في أنظمة الحكم أو أشكاله؛ إذ لا شك أن هذه البحوث تتعارض مع نوع الحكم السائد ومع رغبة الحكام.

ولما كان نظام «المدينة الحكومية» هو النظام السائد في اليونان، فقد سهل ذلك دراسة الأنظمة الحكومية وتحليلها إلى عناصرها وتطورها، فقد كانت المدينة الحكومية بسيطة التكوين، لا تدخلها عوامل معقدة من جهة حجمها أو عدد سكانها الذي لم يكن ليزيد غالبًا عن ٣٠٠٠٠ نسمة، وقد سهل هذا مهمة البحث أمام المشتغلين بالفلسفة السياسية من اليونان، كما جعل من الميسور إقامةَ أنظمةٍ دستورية وسياسية، لم يكن من الممكن إقامةُ مثلها في البلاد ذات الحدود البعيدة، والمساحات الكبيرة، كما كان الحال في الجهات الأخرى.

وفي مدينة حكومية محدودة المساحة وعدد السكان، تكون الرابطة التي تجمع بين الفلاسفة الذين يظهرون فيها أقوى من الرابطة التي قد تقوم بين الفلاسفة في بلادٍ واسعة المساحة؛ ولذلك كان الفلاسفة اليونان يشعرون شعورًا مباشرًا بالحالة السائدة في ولايتهم، كما قامت بينهم وبين سكان الولاية عدة روابط على أساس المصالح المشتركة؛ مما شجعهم على التغلغل في بحث النواحي المختلفة السائدة في الولاية، ومن بينها النواحي السياسية والحكومية والدستورية.

ولا يمكن أن نغفل في هذا المقام تأثير التقاليد.

وقد تضافرت جميع هذه العوامل الطبيعية والوراثية، فساعدت على قيام أنواع متعددة راقية من النظم الدستورية، وكان قيام هذه النظم علاوة على الظروف الأخرى عاملًا مساعدًا على نشأة البحث السياسي النظري في هذه البلاد، حتى نالت اليونان شرفَ خلق العلوم السياسية.

عناصر القومية اليونانية

كان من العوامل التي مكَّنت اليونان من المحافظة على جنسهم أمام الخطر العثماني الذي أحدق بهم فيما بين منتصف القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر؛ الصفاتُ التي تميَّزوا بها من تعليم وذكاء وثروة وخبرة سياسية، اقتبسها اليونان على مرِّ القرون، وما جاء القرن الثامن عشر حتى كان اليونانيون، قد احتلوا مركزًا هامًّا تميَّزوا به على باقي الشعوب الأوروبية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية.

فمن الوجهة الدينية كان للبطريركية اليونانية مركزُ السيادة الدينية على جميع الكنائس الأرثوذكسية بالإمبراطورية العثمانية، وفي الشئون التجارية كان لليونان المركزُ الأكبرُ بين الشعوب الخاضعة للسلطان؛ لأن معظم تجارة الإمبراطورية العثمانية كانت تنقل في سفن يونانية تسيرها أيدٍ يونانية، وكانت هذه السفن تعبر جميع البحار العثمانية من بحر الأرخبيل إلى آسيا الصغرى، والشرق الأدنى إلى أودسا والبحر الأسود، بل إن بعضها فعلًا كان يمخُر الجزء الغربي من البحر الأبيض.

وقد جمع اليونان بسبب التجارة ثروةً طائلة، جعلتهم أغنى شعوب الإمبراطورية العثمانية، ومكَّنتهم من كسب نفوذ عظيم في الإمبراطورية، ومن «شراء» عدة وظائف إدارية وسياسية هامة، كان من بينها وظيفة حكام الأقاليم الدانيوبية.

وكان اليونان يمتازون كذلك على سائر شعوب السلطان بالذكاء والتنوُّر العقلي والتعليم؛ مما ساعدهم على الاستفادة من ظروف الإمبراطورية العثمانية، فمثلًا في القرن السابع عشر اكتسح غرب أوروبا تيار قوي من البيروقراطية في الإدارة (خصوصًا فرنسا)، ولما وصل هذا التيار للإمبراطورية العثمانية، وضع الأخوان أحمد ومصطفى كوبرلي نظامًا إداريًّا «بيروقراطيًّا» مركزه القسطنطينية، ولكن تنفيذ المشروع كان يحتاج لرجالٍ متعلمين يملئُون الوظائف المتعددة، ولم يجد الأخوان كوبرلي من بين شعوب السلطان من هم أكفأ

من اليونان سكان جزائر بحر الأرخبيل لملء هذه الوظائف، فكان هذا بداية شغل اليونان لعدَّة وظائف إدارية هامة بالإمبراطورية العثمانية، ومنها: وظيفة ترجمان الباب العالي وتَرْجُمان الأسطول.

كذلك معظم أعمال الإدارة والسكرتارية المتعلقة بالشئون الخارجية، كانت في يد اليونان الذين عمدوا إلى ملء الوظائف الثانوية من أبناء جنسهم، وكانت نتيجة ذلك أن زاد نفوذ اليونان في جهاز الإدارة السياسية العثمانية.

كذلك تميز اليونان بالذكاء والدهاء والمقدرة على الاستفادة من الظروف، وتجلَّى ذلك في استفادة الفلاحين اليونان من الظروف المحيطة بحكومة القسطنطينية، ومن ضعف الرئاسات العثمانية الحربية الإقطاعية ببلاد اليونان، حتى تمكنوا من تحرير أنفسهم اجتماعيًّا واقتصاديًّا من نَيِّر هؤلاء الأمراء الإقطاعيين.

وكذلك كانت حالة الفلاح اليوناني في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر؛ أحسن بكثير من حالة نظيره في ألمانيا وبولندا، وبعض أجزاء إيطاليا والنمسا والمجر والروسيا، تدل على ذلك المقارنات التي عقدها السائحون في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر؛ حيث قرروا أن الفلاح اليوناني يتمتَّع بحريةٍ اقتصادية واجتماعية، وبثروةٍ أكبر من الفلاحين في سائر تلك الجهات.

كل هذه العوامل مجتمعة أدَّتْ في القرن الثامن عشر، وخصوصًا نصفه الثاني، إلى قيام طبقة من البورجوازية Bourgeoisie كان لقيامها أهمية خاصة؛ لأنها بمثابة السلسلة الفقرية لما ظهر فيما بعد على شكل ثورة القومية اليونانية، كما أنها كانت من العوامل التي نبَّهت اليونانيين إلى قوميتهم، وساعدت على تحسين سمعة اليونان، ونشر النفوذ والدعوة اليونانية في خارج اليونان، كما أنها كانت الطبقة التي أمدَّت اليونان بزعماء قادوا النهضة الفكرية والعلمية بها في أواخر القرن الثامن عشر، وقوَّاد قادوا الحركة القومية اليونانية بعد قيام الثورة.

وقد بلغ من نفوذ اليونان في الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا، أن علي باشا حاكم يانينا الذي نجح في إقامة سيادة لنفسه على الأدرياتيك، وأجبر السلطان على أن يمنح ابنيه باشويتين: باشوية تساليا والبلوبونيز، والذي كان ألبانيًّا في الأصل، لم يجد بدًّا من الانتفاع بالأيدي اليونانية والذكاء اليوناني في إدارة ولايته، فما لبثت شئون ولايته أن اصطبغت بتقاليد يونانية، وأخذ يشرف عليها يونانيون كما بدأت تتعامل باللغة اليونانية.

هذه هي الحالة التي كان عليها شعب اليونان في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، حالة رغد ورفاهية؛ ولذلك فقد كان من التناقض أن يهبَّ اليونانيون

الأغنياء الذين جنوا كل هذه الفوائد من الحكم العثماني، وكان لهم كل هذا النفوذ في وجه العثمانيين ويقومون ضدهم بثورة.

الطريق الصاعد نحو الأكروبول.

ولكن يمكن البحث عن تعليل لذلك بين العوامل النفسية التي تتخلَّل الثورات؛ فقد ثبت أن الشعب المستعبَد (بفتح الباء)، لا يثور في وجه الشعب الذي يحكمه؛ بسبب سوء الإدارة أو استبداد الحاكمين فقط، بل يحدث في كثيرٍ من الأحيان أن يكون الدافع إلى الثورة هو الرغد والرفاهية، كما يكون الدافع أحيانًا هو الاضطهاد والقسوة، فإن الرفاهية تتيح الفرصة والوقت للقيام بالثورة، كما أن الثروة تهيِّئ السبل لتنفيذ الثورة.

كما أن الظلم نفسه لا يؤدي إلى الثورة، بل الشعور بالظلم هو الذي يؤدي إليها، وقد ظهر ذلك جليًّا في الثورة الفرنسية.

لذلك فإن الرغد أو الرخاء والمركز الذي احتلَّه اليونان في شبه جزيرة البلقان، من الوجهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، علاوة على إحياء الوعي القومي والشعور بتقاليد وتاريخ اليونان القديمة، كل ذلك كان له أكبر الأثر في التمهيد لحركة الاستقلال، بل لقد حدث في أوائل القرن التاسع عشر أن بدأ بعض زعماء اليونان ومفكريهم ينادي

بإحياء الإمبراطورية البيزنطية على أساس السيادة اليونانية، لا بمجرد الاستقلال، وكانوا يرمون بذلك إلى القضاء على النفوذ العثماني في أنحاء الإمبراطورية العثمانية، واستبداله بنفوذ يوناني في إمبراطورية يونانية.

ويلاحظ أن هناك عدة عوامل هي التي ساعدت على إحياء «الشعور القومي»، وفي مقدمتها أثر الثورة الفرنسية على عقول اليونان؛ فقد كان الشعور القومي باليونان مستمرًّا في النمو طوال القرن الثامن عشر، فلما جاءت الثورة الفرنسية ساعدت على تزكيته.

كما أن مساعيَ ومؤامرات روسيا في بلاد اليونان كان لها أثر فعال، فقد استفادت روسيا من علاقاتها باليونان؛ لإثارة اليونان ضد العثمانيين.

وكانت هناك روابط دينية وروابط اقتصادية بين البلدين؛ إذ كانت التجارة بين اليونان وموانئ روسيا بالبحر الأسود سببًا في تعارف الدولتين، وربطت مستقبل اليونان بروسيا، وفي عام ١٧٨٣م عقدت روسيا مع السلطان معاهدة تجارية، أرغمت فيها السلطان على منح اليونان الخاضعين لسيادته حق التجارة في ظل العلم الروسي؛ ولذلك كان طبيعيًّا أن يتطلع اليونان إلى مناصرة روسيا لتحريرها حين تحين الفرصة؛ بسبب ضعف تركيا وشعور اليونان بهذا الضعف.

ومن الأسباب التي ساعدت على إحياء الشعور بالقومية اليونانية النهضة الفكرية الأوروبية؛ فإن هذه النهضة التي ظهرت بوضوح في أواخر القرن الثامن عشر، لم تكن كما صورها بعض الكتاب نهضة فجائية، بل كانت نتيجة لمقدماتٍ ونزعات سابقة، وترجع هذه النزعات إلى عهد احتلال البندقية لشبه جزيرة المورة من سنة ١٦٨٤ إلى سنة ١٧١٤م، فقد استفاد اليونان من البندقيين، وانتشرت نزعة تدعو للتنوُّر والتثقُّف، استمرَّت من ذلك الوقت وأبرزت مفكرين من أمثال: ريجاس Rhegas في القرن الثامن عشر، وكان من أهم المفكرين اليونان الذين لهم الفضل في إحياء التفكير والوعي القومي بين اليونان؛ كورياس Koraes (من ١٧٤٨ إلى سنة ١٨٣٣م) الذي أخرج عدة ذخائر من آداب اليونان القديمة، وأعدَّ لها مقدمات باليونانية الدارجة، وقد عمد في مقدماته إلى تنقية اللغة اليونانية من الشوائب التي دخلت عليها، كما أنه اتخذ من هذه المقدمات وسيلة للقيام بدعاية سياسية وقومية.

هذا المجهود الذي قام به المفكرون القوميون وخصوصًا كورياس كان خطوة واسعة في سبيل حركة الإحياء اللغوي، الذي نجح في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، في تنقية اللغة اليونانية الدارجة من النفوذ الأجنبي، وقد كانت اللغة جانبًا هامًّا

من جوانب الحركة القومية النامية في اليونان، ولكن حركة الإحياء الفكرية لم تقتصر على إحياء اللغة، بل كانت حركة عامة شملت جميع النواحي الفكرية عند اليونان، حتى إن السائحين الذين زاروا اليونان في أواخر القرن الثامن عشر دهشوا لتقدُّم اليونان الفكري؛ حيث وجدوا بينهم عددًا كبيرًا من الأطباء الذين تلقَّوْا علومهم بإيطاليا وفرنسا، وعددًا وافرًا ممن درسوا العلوم المختلفة في جامعات أوروبا، بل إن التجار أنفسهم كانوا قد ارتقوا بأساليبهم التجارية، حتى أصبحوا يتبعون في معاملاتهم أرقى الطرق، وكان لهم وكلاء وبيوت تجارية تمثلهم في عدة أنحاء من القارة، من أودسا في الجنوب إلى هامبورج على بحر الشمال.

هذه الحركة لم تكن إلا نهضة فكرية عظيمة، تعكس في العقول صورة اليونان، الذين قامت على أكتافهم عصور اليونان الذهبية في التاريخ القديم، وهذه في الحقيقة هي أهمية النهضة الفكرية؛ لأنها أوجدت لدى اليونانيين وعيًا قوميًّا، وملأتهم فخرًا بمجدهم القديم، فأيقنوا بضرورة التحرُّر من الحكم العثماني. وكانت الفرصة سانحة إذ ذاك؛ بسبب ضعف العثمانيين، ومبادئ الثورة الفرنسية تنير الأفق، فمن الطبيعي أن تصطبغ الحركة الفكرية بصبغةٍ قومية، وأن توجه ضد العثمانيين، وأن تستهدف استقلال اليونان القومي، وهكذا لم تكن النهضة الفكرية في بلاد اليونان إلا الجانب الروحي للحركة القومية اليونانية.

أما النهضة المادية فكانت نتيجة لنزعة استمرت طوال القرن الثامن عشر؛ لأن الفلاحين بعد تحرير أنفسهم من الأرستقراطية العثمانية الإقطاعية تمكنوا من تحسين حالتهم اجتماعيًّا واقتصاديًّا، كما أن التجار عملوا على ازدهار تجارتهم، فجمعوا ثروات طائلة.

وشهدت السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر والأولى من القرن التاسع عشر، نشاطًا ملحوظًا للتجارة اليونانية؛ بسبب الأحداث التي اجتاحت أوروبا خلال حكم نابليون الذي قاطع تجارة بريطانيا، كما أن بريطانيا من جانبها فرضت ضد نابليون وحلفائه حصارًا بحريًّا، فلم تعد تسمح بالتجول في البحر الأبيض، إلا للسفن التي تحمل العلم العثماني، ولم يترك اليونان هذه الفرصة تمر دون الإفادة منها.

وهكذا قامت ببلاد اليونان وجزائرها نهضة تجارية، كانت أشبه في عظمتها بما كانت عليه اليونان في عهد «هللينا» القديمة، وقد شبه المؤرخ تونيبي هذه النهضة التجارية التي ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر بنهضة الجزر اليونانية القديمة، وأهلها الذين تمكنوا من صد الفرس عن بلادهم.

وكما كانت النهضة الفكرية هي الجانب الروحي للقومية اليونانية، كذلك كان الرخاء المادي الذي ظهر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، هو الجانب المادي للحركة القومية اليونانية.

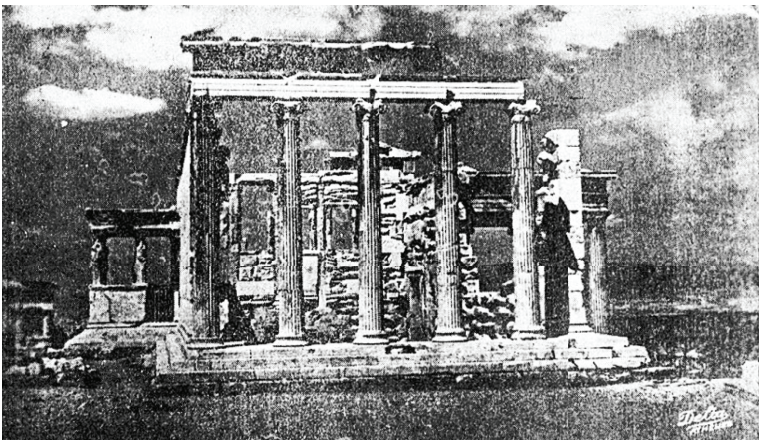

معبد «الأرختيون» في أثينا.

وبفضل هذه العوامل مضافًا إليها المبادئ التي نادت بها الثورة الفرنسية، تهيَّأَت الظروف لاندلاع الثورة اليونانية، وكان أوضح أثر للثورة الفرنسية في عقول اليونان الجمعيات السرية التي تكونت في ذلك الوقت، وأهمها فيليكي هيتاريا Pnilike Hetaria.

وقد أنشأ هذه الجمعية أربعة من تجار اليونان في أودسا عام ١٨١٤م، وأخذ عدد أعضائها في النمو باستمرار، حتى قدر عدد أعضائها بما لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠ عضو، وكان البوليس الروسي يشجِّعهم على عقد اجتماعاتهم، ولم يكن غرض هذه الجمعية في أول الأمر مجرد استقلال اليونان، بل كان طرد العثمانيين من إمبراطوريتهم وإحياء الإمبراطورية البيزنطية تحت سيادة اليونان، ومهما قيل في أثر هذه الجمعية فقد عملت، على أي حال، على إثارة الشعور اليوناني ضد العثمانيين.

لمحة من تاريخ اليونان

شهدت السنوات الأخيرة من حياة أرسطو، والسنوات التي أعقبت موته؛ بدء تغير هام في ظروف اليونان السياسية، وهو تطور «المدينة الحكومية»، وتحولها إلى وحدةٍ أكبر، وقد استمر هذا التغيير مدةً من الزمن، بل يمكن القول: إنه منذ بدأ التغيير، لم تقم للمدن الحكومية اليونانية قائمة بالشكل الذي كانت قائمة به من قبل.

وكان قيام مملكة مقدونيا أولًا، ثم الإمبراطورية المقدونية بعد ذلك، أكبر عامل ساعد على القضاء على استقلال المدن الحكومية اليونانية، حتى فقدت هذه المدن كيانها ومظاهرها الأساسية القديمة، عندما كانت كل مدينة منها عبارةً عن وحدة سياسية اجتماعية قائمة بذاتها.

وفي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد (١٤٩ق.م.)، تمكنت روما من بسط سيادتها على شبه جزيرة اليونان، وبهذه الكيفية أصبحت الولايات اليونانية جزءًا من الإمبراطورية الرومانية التي كانت في ذلك الوقت بسبيلها إلى إقامة إمبراطورية عالمية.

ولكن على الرغم من أن بلاد اليونان أصبحت من الوجهة السياسية إقليمًا رومانيًّا، إلا أن روما؛ نظرًا لتأصل نظام المدن الحكومية بها، أبقت على معظم المدن الحكومية في اليونان، كما احتفظت لها بأنظمتها الدستورية وتقاليدها وقوانينها، رغم خضوعها للسيادة الرومانية.

ولما شبَّت الحرب الأهلية في روما بين قيصر وبومبي، انحازت أثينا — وكانت ولا تزال إذ ذاك مستعمرة رومانية — إلى جانب بومبي، ومع ذلك فإنه لما انهزم بومبي وانتصر قيصر، عامل خصومه بمنتهى الرفق، ولكن الاعتراف بالجميل لم يدُم طويلًا، فما لبثت أثينا أن ربطت عجلتها ببروتس وكاسياس، إذ إنها تصورت في قاتلي قيصر بطولة تشبه البطولة التي كانت تتغنى بها في أبطالها.

وفي الصراع الذي شب بعد ذلك بين أوكتافياس وأنطوني، انضمت أثينا إلى أنطوني، فلما انتصر أوكتافياس شدَّد قبضته على أثينا، ولما جاء الإمبراطور أدريان بذل محاولة كريمة لكي يعيد إلى أثينا عظمتها، ولكن غزوات القوط كانت قد بدأت تصل إلى أثينا.

وفي القرن الثالث عشر للميلاد سقطت أثينا في يد بالدوين، وحكمها بعد ديلتر من بيت أراجون، وعند وفاته سقطت في يد بيازيد إمبراطور الأتراك.

وتناوب الحكم عليها بعد ذلك الأسبانيون والفينيسيون، ولكن في عام ١٤٦٠م سقطت شبه الجزيرة كلها في يد الأتراك، وقرب ختام القرن السابع عشر غزا الفينيسيون بلاد اليونان مرة أخرى، واستعادوا أثينا من يد الأتراك، ولكن الحكومة المركزية في فينيسيا لم تكن من القوة بحيث يمكنها الاحتفاظ بأثينا؛ ولذلك فإن هذه البلاد ما لبثت أن عادت ثانية في عام ١٨١٧م إلى حكم الأتراك، وعندما تولى علي باشا حكم هذه البلاد، ساءت حالة أهلها أكثر من ذي قبل.

ومنذ ذلك الوقت بدأ جهاد الشباب اليوناني في سبيل الحرية، وتألَّفَتْ أول جمعية سرية للجهاد من أجل الحرية في سانت بيترسبرج، ولكن يوسف باشا أخضع الثورة التي قامت في جالاتز.

وقد كانت الروابط الاقتصادية بين اليونان وتركيا وثيقة، كما كان اليونانيون يتمتعون بمركزٍ تجاري ممتاز في القسطنطينية، وكان الأتراك يعتمدون عليهم اعتمادًا كبيرًا من هذه الوجهة.

ولكن هذا المركز الممتاز الذي كان يتمتع به اليونان في داخل الإمبراطورية العثمانية، هو الذي مهد لهم سبيل الثورة والاستقلال، كما سنرى في الفصل القادم، عندما نسرد الأحداث التي مهدت لحركة الانفصال، ثم الاستقلال التام عن الإمبراطورية العثمانية.

وقبل أن يمر قرن كامل على استقلال اليونان حاول اليونانيون، عند نشوب الحرب العظمى (١٩١٤–١٩١٨م)، الاستيلاء على بعض الأجزاء الساحلية من بلاد الأناضول، ومع أنهم لم ينجحوا في ذلك، إلا أن هذه المحاولة تدل دلالةً واضحة على مدى طموحهم.

كيف استقلت اليونان؟

فوجئت الدوائر السياسية في أوروبا في عام ١٨٢١م، باندلاع الثورة في ولايات الطونة ضد الدولة العلية، فكان ذلك فاتحة الاضطرابات والقلاقل التي توقف عليها مصير الإمبراطورية التركية، والتي تعرف في التاريخ بالمسألة الشرقية، وكان بعض الساسة يعزو معظم القلاقل في أوروبا إلى وجود تركيا في داخلها؛ لأنها تخالفها في الدين والعادات والأخلاق، ولكن لحسن حظ الترك لم توفق دول أوروبا قط إلى حل هذه المسألة، فإن خوف النمسا وإنجلترا من اتساع نفوذ روسيا، كان يفوق بكثيرٍ كراهيتها للأتراك.

على أنه لم يكن في ظاهر الأمر داعٍ حقيقي لقيام اليونان ضد الترك، إذ إن رعايا السلطان المسيحيين الأرثوذكس كانوا وقتئذٍ أحسنَ حالًا من فلاحي كثيرٍ من الدول الأوروبية الأخرى، ولكن ديانتهم كانت دائمًا تجعلهم يشعرون بأنهم عضو غريب في جسم الدولة العثمانية، وأن نبوغهم في الملاحة، وذكرهم مجد الإغريق الأقدمين ولد فيهم آمالًا وأحلامًا، حتى صاروا يمنُّون أنفسهم باسترجاع دولة الإغريق البيزنطية، واستعانوا على تحقيق أمانيهم بتأسيس الجمعيات السرية، وكان أهمها «جمعية هيتاريا فيليكي» (جمعية الإخوان).

أُسِّست الجمعية عام ١٨١٤م بعد أن علم اليونان أن مؤتمر فينا لم يعمل شيئًا لصالح رعايا السلطان المسيحيين، وكان غرض هذه الجمعية طرد الترك من أوروبا، وإعادة دولة الروم الشرقية، وقد سنحت لهم الفرصة للثورة ضد الترك، عندما رأوا أحد ولاة الأتراك، وهو علي باشا والي يانينا يخرج على الدولة، فشقوا عليها عصا الطاعة في ملدافيا والأفلاق في مارس سنة ١٨٢١م، بإمرة «ألكسندر هبسلنتي» أحد نبلاء اليونان، ولم يكن هبسلنتي هذا بالقائد الكفء، وكان كل اعتماده في الحركة على معونة الروسيا له، ولكن فاته أن قيصر الروسيا كان أكبر مؤيد لتحالف الدول، وأن مترنيخ زعيم ساسة أوروبا كان عدو

كل حركة ثورية، وكان صاحب النفوذ على جميع ساسة أوروبا، فلم تلبث الفتنة أن نامت لعدم مؤازرة الروسيا لها.

على أن هذه الحركة لم تكن إلا نذيرًا بثورةٍ أخرى أشد منها هولًا وأعظم شأنًا، نشبت في المورة بقيادة «كولوكتروني» وغيره، وفيها أخذ الترك على غرة، فهزمهم الثوار في كل مكان حتى استولوا على حصن «تريبولتزا»، وفتكوا بالمسلمين فتكًا ذريعًا، فثأرت الدولة لنفسها بأن قتلت بطريرك القسطنطينية؛ إذ كان له دخل في الثورة، وذبحت كثيرًا من مسيحيي آسيا الصغرى.

ولما غلب الترك علي باشا على أمره، وقتلوه في فبراير سنة ١٨٢٢م، صفا لهم الجو، وجندوا كل قواهم لإخماد أنفاس الثوار، فاستولى الأسطول العثماني على جزيرة «خيوس»، وفتك بكثيرٍ من أهلها، وأسر معظم الباقين، ومن ذلك الحين انقلبت الحرب إلى مذابح دموية بين الفريقين، قضي فيها على معظم المسلمين ببلاد المورة، وازدادت خطورة الحالة حتى أصبح من المحتم تدخل الدولة في ثورة اليونان.

ولا شك أن اليونانيين وقتئذٍ لم تكن لديهم الوسائل والأسباب الكافية، لنيل استقلالهم بأنفسهم، فإن معظم زعمائهم كانوا من الثوار لا من قادة الحرب، وقوادهم البحريون لم يتدربوا على الحروب البحرية، ولو تُرك اليونان وشأنهم في هذه الحروب، لما نجحت الثورة ضد العثمانيين، ولكن هناك أسبابًا دعت إلى مؤازراتهم والأخذ بناصرهم، فإن الأوروبيين كانوا جميعًا يؤيدون اليونان؛ لما ارتكبه الأتراك من الفظائع انتقامًا لمذابح المورة، ولعطفهم على اليونان ورغبتهم في مساعدتهم عنهم لمجرد كونهم يونانيين؛ لذلك ظل النصر حليفهم مدة، بمعاضدة الشعوب الأوروبية، وتطوع الكثير من أبنائها في جيش الثوار.

ولما ضاق الحال بالسلطان، ورأى أن اليونان ستفلت من يده، استنجد بمحمد علي باشا والي الديار المصرية، فأرسل محمد علي جيشًا كامل العدد والعدة بإمرة ابنه إبراهيم باشا، ولم تمض إلا مدة وجيزة حتى تغير مجرى الحرب، وأصبح النصر في جانب الترك بفضل تدخُّل الجيش المصري.

وفي أثناء ذلك كان تحمُّس الشعب الإنجليزي لليونان شديدًا، لاعتقادهم أنهم مدينون لسكان هذه البلاد الأقدمين بكل علومهم ومعارفهم، وكل ما ينمُّ عن الجمال والشهامة والمروءة، فإن «جورج كاننج» وزير الخارجية الإنجليزية، رغم تمسكه بسياسة التزام إنجلترا الحياد، كان يعطف على اليونان عطفًا شديدًا، وطالما انكب على مطالعة آدابهم القديمة، التي كان يحبها حبًّا جمًّا، كذلك كان موقف الشاعر الإنجليزي «اللورد بيرون»

معهم، فكان يذكي بأشعاره نار الحماسة في قلوب مواطنيه للأخذ بناصر اليونان، وذهب بنفسه متطوعًا في الجيش، فمات هناك وهو يدافع عن القضية اليونانية.

وكان نجاح محمد علي وانتصاره على اليونان، فاتحة طور جديد في هذه الحرب، فإن نقولا الأول قيصر روسيا الجديد، الذي تولى العرش في أواخر عام ١٨٢٥م، عاد إلى سياسة بطرس الأكبر وكترين الثانية، وهي التي تقضي بتقويض أركان الدولة العثمانية، فمال إلى مساعدة اليونان، وأراد أن يسير جيشًا لمقاتلة الترك، ولكن إنجلترا بزعامة جورج كاننج، كانت تأبى أن ترى روسيا تمزق أوصال الدولة العثمانية، أو تنفرد بحل المشكلة حسب أهوائها.

ولذلك فقد اضطرت إلى نبذ سياسة الحياد، التي اتبعتها في أول الحرب، وقررت وجوب التدخل في الأمر لحماية تركيا من الروسيا، وانضمت فرنسا إلى ذلك الرأي، أما النمسا وبروسيا فكانتا تعارضان كل تدخل في مشكلة اليونان.

وبعد مفاوضاتٍ طويلة أبرمت إنجلترا وفرنسا وروسيا «معاهدة لندن» (يوليو سنة ١٨٢٧م)، وفيها تَقرَّر وجوب تدخل أوروبا في مشكلة تركيا، كما اتُّفق على الشروط التي لا بد أن تمنح لليونان، فأعلن أنه لا يجوز لدولةٍ من الدول التي وقَّعَتْ هذه المعاهدة أن تستهدف من ورائها أي توسع في أملاكها أو تجارتها، وعرضت الشروط بعد ذلك على تركيا، وفحواها أن تستقل اليونان بإدارة شئونها، مع اعترافها بسيادة الدولة، وأمهلتها شهرًا لقبول هذه الشروط.

وكان كاننج لا يزال يسعى إلى حل المشكلة بالطرق السلمية، ولكن عاجلته المنية في خلال ذلك، وحدث أن تركيا لم تجب جوابًا مُرضيًا على العرض الذي قدم إليها، فسيرت إنجلترا وفرنسا والروسيا أساطيلها إلى المياه التركية، وصدرت الأوامر إلى كلٍّ من قائد الأسطول الإنجليزي والفرنسي، بأن يحاول حل الخلاف بين الترك واليونان، بالطرق السلمية ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وفي هذه الآونة كان الأسطول التركي المصري راسيًا في مياه خليج «نوارين»، وإبراهيم باشا ماضٍ في فتوحاته، غير مكترث باحتجاجات الحلفاء، فدخلت أساطيلها هذا الخليج، لترغم تركيا على الاستجابة لما طلب منها، وحدث خلاف بشأن موضع بعض القطع التركية، فتبادل الفريقان بعض طلقات نارية أدت إلى الاشتباك في موقعةٍ هامة، أسفَرَتْ عن تحطيم الأسطول التركي المصري في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧م، وأثارت النكبة غضب السلطان وحنقه، حتى إنه أعلن الجهاد على كل المسيحية وخاصة الروسيا عدو الدولة القديم،

فعرضت الروسيا على الحلفاء أن يستمر الجميع في الحرب، ولكن أَبَتْ إنجلترا الاستمرار في عملٍ قد يكون من شأنه إضعاف تركيا، وقَفَا أثرها في ذلك فرنسا، فانسحبتا من الحرب، وهكذا خلا الجو لروسيا لمنازلة تركيا على انفراد.

ثم عادت إنجلترا فرأت أن وقوفها على الحياد، يمنعها من الاشتراك في حل المشكلة عند انتهاء الحرب، فقرر وزيرها «ولنجتون» إرسال قوة لإجلاء جيوش محمد علي عن المورة، وقد تم ذلك بمظاهرةٍ بحرية قام بها كدرنجتون أمام الإسكندرية، وفي هذه الأثناء هزم الروس الأتراك، واضطروهم إلى عقد «معاهدة أدرنة» في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩م، وبها أصبحت ولايتا الأفلاق والبغدان (رومانيا الآن) مستقلتين تقريبًا تحت حماية روسيا، كما صارت اليونان ولاية قائمة بذاتها، ليس لتركيا عليها غير السيادة الاسمية.

وفي يوم ٣ فبراير سنة ١٨٣٠م وقع في لندن بروتوكول المؤتمر الذي عقد من بريطانيا وفرنسا والروسيا؛ لبحث موضوع استقلال اليونان التام عن الحكم العثماني.

وقد نص البند الأول منه على أن تصبح اليونان دولةً مستقلة تتمتع بكافة الحقوق السياسية والإدارية والتجارية، التي يتضمنها الاستقلال التام.

أما البند الثاني فقد عين حدود الدولة اليونانية الجديدة.

ونص البند الثالث على أن تكون حكومة اليونان ملكية وراثية في أكبر الأولاد سنًّا، ويكون لقب الأمير الذي يُختار لهذا العرش Sovereign Prince of Greece، كما يكون شخص هذا الأمير موضوع بحث في المستقبل.

ونص البند السادس على أن يمنح الباب العالي للرعايا اليونان، الذين يرغبون في مغادرة الأراضي العثمانية مهلة سنة يبيعون فيها ممتلكاتهم ويرحلون بعدها بحرية.

كذلك تمنح الحكومة اليونانية هذا الامتياز نفسه لمن يريد مغادرة أراضيها، والذهاب إلى الأراضي التركية.

وعقدت بعد ذلك اتفاقية أخرى بين بريطانيا العظمى وفرنسا والروسيا من جانب، وبافاريا من جانبٍ آخر بخصوص السيادة الملكية في اليونان، وقد وقعت هذه الاتفاقية الأخيرة في لندن يوم ٧ مايو سنة ١٨٣٢م.

ونص البند الأول على أن يعرض الملوك في بريطانيا العظمى وفرنسا والروسيا — بمقتضى الحق المخول لهم من الشعب اليوناني — التاج الوراثي في اليونان على الأمير فردريك أوتو البافاري ثاني أولاد ملك بافاريا.

ونص البند الثاني على أن يتقبل جلالة ملك بافاريا باسم ابنه المذكور، الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد، التاج الوراثي في اليونان طبقًا للشروط التي تتضمنها هذه الاتفاقية.

ونص البند الثامن على أن يكون التاج الملكي والمراسيم الملكية وراثية في اليونان، ويكون انتقال التاج إلى سلالة الأمير الشرعيين، طبقًا لمبدأ أكبر الأولاد سنًّا Order of Primogeniture، وفي حالة وفاة الأمير أوتو البافاري دون أن تكون له سلالة مباشرة، ينتقل التاج اليوناني إلى أخيه الأصغر، ثم إلى سلالة أخيه الشرعيين طبقًا لمبدأ أكبر الأولاد سنًّا.

وفي أي حالٍ من الأحوال لا يتحد التاج اليوناني والتاج البافاري في ملكيةٍ واحدة.

ونص البند التاسع على أن يُعتبر الأمير أوتو البافاري ملك اليونان، قد بلغ سن الرشد حينما تنقضي سنَتُه العشرون من العمر، أو بعبارةٍ أخرى في أول يونيو سنة ١٨٣٥م.

وقد لاقت الدول صعوبة في انتخاب ملك لهذه المملكة الجديدة؛ إذ رفض عرشها الأمير «يوحنا السكسوني»، والأمير «ليوبلد كوبرج» الذي صار فيما بعد ملكًا على البلجيك، إلى أن تولاه الأمير البافاري «أوتو» سنة ١٨٣٣م، وهو في الثامنة عشرة من عمره، ولا شك أن تولِّي هذا المركز كان من أصعب الأمور، ولم يبد «أوتو» حذقًا في إدارة شئونه، وكثرت في أيامه الفتن والقلاقل، حتى اضطر إلى النزول عن العرش سنة ١٨٦٢م، فتولاه «جورج الأول» ثاني أولاد «كريستيان التاسع» ملك الدانمرك بوساطة إنجلترا، ولا يزال الملك في بيته حتى الآن.

هكذا انتهت المسألة اليونانية، ولقد كانت روسيا في بادئ الأمر ترغب في تحويل بلاد اليونان إلى ولايةٍ مستقلة بشئونها الداخلية مع خضوعها لسيادة السلطان، ولكن ولنجتون ومترنيخ خشيا أن يكون ذلك وسيلة لتدخل روسيا في شئون البلقان فيما بعد، ففضَّلا منح اليونان استقلالًا تامًّا، رغم أنهما كانا في مبدأ الأمر في مقدمة المتمسكين بمبدأ المحافظة على أملاك الدولة العثمانية.

بلاد السياحة والآثار

إن اليونان — كغيرها من البلاد التي تتميز بلغتها وثقافتها وفنونها، وتاريخها الذي يتصل بحياة ومدنية الإنسان في كل أنحاء العالم، لا يمكن معرفتها معرفة تامة، إلا بعد دراسة طويلة، ولكن في إمكان السائح الذي ليست عنده فسحة طويلة من الوقت لهذه الدراسة، أن يستمتع بهذه البلاد على شريطة أن يكون على علمٍ بأهم معالمها.

ومثل هذه الرحلة السريعة تدخل المتعة إلى نفس الزائر، كما أنها في نفس الوقت تعتبر رحلة ثقافية للسائح، الذي ينوي زيارة سائر أنحاء أوروبا؛ ذلك لأن الحضارة اليونانية هي أساس تاريخ أوروبا، وثقافة البلاد التي تقع على المحيط الأطلنطي.

ولا بد للسائح بعد زيارة أثينا أن يقوم بزيارة أهم مراكز الحضارة اليونانية القديمة، وهي تعتبر إلى حدٍّ كبير أهم المراكز السياحية في بلاد اليونان.

وعلى بعد ٦٠ ميلًا إلى الغرب من أثينا، بعد أن يعبر السائح برزخ كورنث بقناته الرائعة، يجد نفسه عند موقع مدينة «كورنث» القديمة، التي كانت تقع على منحدرات التل، الذي يطل على خليج كورنث، وتقع المدينة القديمة على بعد ميلين من موقع المدينة الحديثة التي تحمل نفس الاسم، وآثارها لا تختلط بالمباني الحديثة التي شيدت فيما بعد.

ويستطيع السائح أن يرى الأجورا (السوق) والمسرح الروماني ومعبد أبولو، وغير ذلك من الآثار التي تساعد السائح صاحب الخيال الخصب على أن يتصور شكل أبنية المدينة التي كانت تتحكم يومًا ما في الطريق التجاري بين البلوبينيز وشبه جزيرة اليونان.

أما آثار «أوليمبيا» المقدسة فإنها تقع في وادٍ قريب من الساحل الغربي للبلوبينيز، والمناطق الطبيعية هناك خلابة ورائعة.

وكانت الألعاب الأوليمبية — وهي أشهر المباريات في جميع العصور — تعقد كل أربع سنوات — أما اليوم فمن هذا المكان تضاء الشعلة التي يحملها المتسابقون بأيديهم إلى أي

مكان في العالم تقام فيه الألعاب الأوليمبية، وبواسطة الشعلة التي أضيئت في أوليمبيا، تضاء شعلة أخرى ثابتة طول المدة التي تقام فيها الألعاب.

معبد «البارتنون» في أثينا.

ولقد كشفت الحفريات في أوليمبيا عن عددٍ من روائع التماثيل، ومنها تمثال هرمز الذي نحته براكسيتيلس، أشهر النحاتين في العصور القديمة، وتمثال النصر الذي نحته بايونيوس منافس براكسيتيلس، وأجزاء من معبد زيوس هي الآن محفوظة في المتحف المحلي.

ويمكن للسائح أن يسافر بالقطار من أثينا إلى أوليمبيا (سبع ساعات)، أو من باتراس (ثلاث ساعات)، أو بالطريق البري من أثينا عن طريق تريبوليس (٢٠٣ ميلًا)، كما يوجد هناك فندق كبير في أوليمبيا.

و«مايسيناي» المدينة الزاهرة التي تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ، كانت مهد حضارة قديمة، كما أن أجاممنون ملك مايسيناي كان قائد الإغريق في حرب طروادة، ولقد كشفت الحفائر عن آثارٍ قيمة تنتمي إلى هذا العصر، اكتشفت في قبور أتريوس وكليتامنسترا، ويقوم أكروبول مايسيناي ببوابته الشهيرة ذات السباع، كالحارس على الأراضي الشاسعة المحيطة به.

وعلى مقربةٍ من أكروبول المدينة يجد السائح فندقًا صغيرًا مريحًا، ومايسيناي تقع تقريبًا في منتصف الطريق البري بين كورنث ونوبليون، ويمكن السفر إليها من أثينا بالسيارة (٧٨ ميلًا)، وبالقطار (ثلاث ساعات ونصف).

وفي «أبيدورس» يقع محراب إسكليبيوس، أعظم معبد من معابد العصور القديمة، ويمكن رؤية آثاره بالقرب من الملعب (الاستاد).

أما ما تمتاز به أبيدورس هذه الأيام: فهو مسرحها القديم الفخم الذي لا يزال يحتفظ بكيانه، ويعتبر من أكبر الآثار اليونانية، ولا تزال تقدَّم تباعًا في هذا المسرح الذي يسع ١٤٠٠٠ متفرج المسرحياتُ اليونانيةُ القديمةُ حتى أيامنا هذه.

ويضم المتحف المحلي آثارًا شيقة عديدة، عثر عليها أثناء التنقيب.

وعلى قمة الصخرة التي تعلو الخليج الأزرق الهادئ، ومدينة «نوبليون» الهادئة تقع قلعة بالاميدي القديمة، وهي إحدى آثار الفرنك، ويستطيع السائح أن يصعد درجات القلعة القديمة (٧٠٠ قدم)، أو يستقل قاربًا إلى قلعة بورتزي، التي تقع في جزيرة في وسط الخليج.

ويمكن للسائح أن يصل من أثينا إلى نوبليون بالطريق البري (٩١ ميلًا)، أو بالقطار (أربع ساعات ونصف)، أما إذا استقل قاربًا من ميناء بيريه، فإنه يصل إليها بعد تسع ساعات، ولقد أصبحت قلعة بورتزي فندقًا مريحًا للسياح.

وتقع «اسبرطة» في وسط الجزء الجنوبي من البلوبينيز، وكانت العاصمة القديمة للاسيديمونيا، وهي اليوم قد حققت نبوءة ثيوسيديس الذي قال: «إذا حدث أن لاسيديمونيا تخرَّبت، ولم يبقَ فيها سوى المعابد وبقايا المباني العامة، فإن أحفادنا في المستقبل البعيد سيجدون من الصعب عليهم أن يعتقدوا أن مكانتها كانت تتناسب مع شهرتها.»

إن الموقع جميل بديع، ولكن الآثار لا يمكن مقارنتها بآثار كثير من المدن اليونانية القديمة.

وبالقرب من اسبرطة تقع «مسترا» وهي مدينة جبلية ترجع إلى العهد البيزنطي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وتسيطر عليها قلعة فرنك ده فيلهاردوان، الذي كان من قواد الحروب الصليبية، وقد أعاد الأتراك بناءها.

في أساطير اليونان يروي لنا أشيليس: أن فوق «جبل أثوس» أشعلت النيران، معلنة سقوط مدينة طروادة في يد اليونانيين. وعلى هذا الجبل نفسه تقيم عشرون مجموعة من الرهبان، لا تزال تتبع تقاليد القرن الحادي عشر حتى اليوم.

هؤلاء الرهبان الذين يحرسون وثائق تاريخية قيمة، وتحفًا فنية ثمينة، يستقلون الزائر في كل وقت، كما يستضيفون كل من يرغب في الإقامة؛ لكي يدرس محتويات مكتباتهم داخل مباني الأديرة الضخمة، غير أنه محرم على النساء دخول جبل أثوس، ويمكن الوصول إلى جبل أثوس عن طريق البحر من سالونيكا إلى ميناء دافني، أو بالسيارة إلى ترايبتي ومنها يركب الزائر حصانًا أو بغلًا أو حمارًا.

هذا هو طراز «العامل» اليوناني الأصيل.

و«جزيرة كريت» تعتبر أكبر جزر اليونان (طولها ١٦٠ ميلًا)، وهي جزيرة جبلية وعرة يقطنها قوم يختلفون في عاداتهم وملابسهم ولهجاتهم عن سائر سكان اليونان.

ولقد كشفت الحفائر فيها عن آثارٍ قديمة، وتحف قيمة، وقد قام بالبحث عنها سير أرثر إيفانز في كنوسوس مهد الحضارة الميونية، وكنوسوس وقصرها الفخم المسمى مينوس تقع على بعد ثلاثة أميال من هيراكليون أكبر مدينة في كريت.

إن أهم ما يشاهده السائح في كريت هو كنائسها البيزنطية القديمة، مثل: أركادي والقلاع التي بنيت على طراز قلاع مدينة البندقية، وهناك خط منتظم للبواخر من بيريه إلى كريت، كما أن هناك رحلتين بالطائرة يوميًّا، وهناك فنادق مريحة في هراكليون وكانيا.

أما جزر «بحر إيجة» أو جزر أرخبيل اليونان، فتكون أشهر مجموعة للجزر في العالم، وفيها مناظر طبيعية خلابة وشواطئ جميلة وتلال شديدة الانحدار، وحدائق الكروم والزيتون تغطي منحدراتها، ومن الصعب عليك أن تقول أي هذه الجزر أجمل من غيرها، فكلها تجذب السائحين: فجزيرة لسبوس (ميتيلينا) موطن سافو، تغطي الغابات تلالها، وجزيرة كيوس تشتهر بالبرتقال والأزهار، وجزيرة ساموس تشتهر بنبيذها.

وإلى الجنوب تقع جزر أندروس وتينوس وسيروس، وميكونوس وباروس وناكسوس، وديلوس وهي الجزيرة المقدسة التي يوجد بها محراب الإله أبولو، وجزيرة تيرا وهي عبارة عن فوهة بركان انفجر من أعماق البحر.

وهناك مجموعة من الجزر في أرخبيل اليونان، تسمى الجزر الاثني عشر أو جزر «الدوديكانيز»، وهي رودس وكرباثوس وكاسوس وكوس، وباتموس وليروس وكالمنوس وسايمي، واستيباليا ونيسيروس وتيلوس وكاستلوريزو.

وجزيرة «رودس» وهي أكبرها، وصلت إلى درجةٍ كبيرة من الحضارة في العصور القديمة، وهي اليوم مركز سياحي محبوب في البحر الأبيض المتوسط، وتشتهر بمناظرها الجميلة وشواطئها الممتازة، وفنادقها من الدرجة الأولى.

ويمكن الوصول إلى جزر الدوديكانيز بالبواخر من ميناء بيريه، كما أن هناك خدمةً يوميةً بالطرق الجوية بين أثينا ورودس.

أما الجزر «الأيونية» فإنها تتكوَّن من مجموعة من الجزر، تختلف اختلافًا كبيرًا عن جزر بحر إيجة، فالطبيعة هنا لطيفة هادئة ممتازة، وهي تشمل سبع جزر: كاتيرا وزانتي وسيفالونيا وإيثاكا، ولفكاس وباكسوا وكورفو، وهذه الجزيرة الأخيرة مغطاة بالغابات الجميلة والشواطئ البديعة، والأبنية ذات الطراز البندقي.

وكانت جزر إيثاكا من الولايات اليونانية الهامة ذات التاريخ المجيد في العصور القديمة؛ إذ كانت إيثاكا هي موطن أوديسيوس الذي حاصر طروادة (في الأساطير اليونانية)، أما كورفو فكانت من أقوى حلفاء أثينا، ومن أكبر الدول البحرية في العصر القديم.

وبعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية انتقلت كورفو مع غيرها من الجزر الأيونية إلى حكم البندقية، وفي عام ١٧٩٧م احتلها الإنجليز ثم أعادوها إلى حكم اليونان عام ١٨٦٣م.

وهناك خط بحري يومي يربط الجزر الأيونية بميناء بيريه، وخط جوي منتظم بين أثينا وكورفو.

ولنعد الآن إلى مدينة من أهم مدن الآثار اليونانية، وقد تركنا الحديث عنها للنهاية حتى نتكلم عنها بإسهاب، وهي مدينة «دلفي».

وتقع آثار دلفي على منحدرات جبل بارناسوس على مسيرة أربع ساعات بالسيارة إلى الشمال الغربي من أثينا، وهي عبارة عن بقايا مقبرة أبولو، وعن مسرح لا يزال يحتفظ برونقه ولا تزال المسرحيات تمثل فيه، وملعب (استاد) للألعاب، وآثار أخرى لا تزال تحتفظ بكيانها ورونقها، كما أن هناك متحفًا صغيرًا يحوي أهمَّ الآثار التي اكتشفت في نفس المكان.

لقد كان للإغريق القدماء ذوقٌ عجيبٌ في اختيار مواقع أماكنهم المقدسة؛ حيث يستطيع الحجاج الاستمتاع روحيًّا وجسميًّا، وكان الناس يفدون إلى دلفي من جميع أنحاء العالم المعروف في ذلك الحين؛ لكي ينصتوا إلى الوحي الإلهي من محراب معبد دلفي، وكانت قلوبهم تمتلئ إعجابًا ورهبة، من روعة المناظر الطبيعية الخلَّابة المحيطة بهم.

وتقع دلفي على منحدرات جبل بارناسوس، وهو يرتفع ٨٠٠٠ قدم عن سطح البحر، ويغطي الجليد قمته حتى نهاية فصل الربيع، إن هذه الصخرة العتيدة المسماة بصخرة فادريادس، قد انشقَّت وكوَّنت خانقًا ضيقًا، يتفجَّر من أسفله نبع مقدس يسمى كاستاليا، يخرج منه ماء مثلج صافٍ طوال أيام السنة.

وحول هذا النبع، عند قاعدة الصخرة الرمادية الكبيرة، تجتمع آثار دلفي على ارتفاع ١٨٥٠ قدمًا، وعلى منحدراتها تنمو مروج الزيتون، ثم تهبط الأرض بانحدارٍ شديد حتى تصل إلى الخانق، الذي يسير فيه نهر بليستوس.

وإذا اتجهت جنوبًا أخذ الخانق، بعد مسافةٍ طويلة، في الاتساع حتى يتحول إلى سهل عريض، تُغطِّيه مروجُ الزيتون المسماة مروج كريسو، ووراء بساتين الزيتون يبدو خليج كورنث الأزرق واضحًا جليًّا، وعلى شواطئه تقع ميناء أتيا الصغيرة؛ حيث كان الحجاج الأقدمون يفدون من أثينا، وحيث يفد السائحون العصريون سالكين نفس الطريق.

وإذا رجعنا إلى الوراء، إلى العصور المايثينية، نجد أن هذا الموقع كان مخصصًا لإله الأرض، ولـ «بوسيدون» إله البحر «الذي يهز الأرض هزًّا»، وعقب هذا جاء عصر خصص فيه الموقع لأبولو إله الشمس، الذي قتل التنين الحارس (البايثون) واستولى على المحراب!

دافني.

وكان الناس يفدون إلى هناك فرادى وجماعات، كما كان الحكَّام والولاة يقصدون المكان، من جميع أنحاء العالم المعروف في ذلك الحين، سواء من اليونان أو غيرها، ليستلهموا الوحي في المسائل الهامة التي كانت تعترضهم، وكان مصدر الوحي امرأة عجوز معروفة باسم بايثيا، اختارها الكهنة من أتباع أبولو، وكانت تجلس في داخل معبد أبولو على قائم مثلث الشكل، فوق فوهة في الصخور تخرج منها الأبخرة البركانية، وكانت هذه الأبخرة بالإضافة إلى أوراق شجرة أبولو التي تمضغها بايثيا تتركها في غيبوبة.

وكانت الأسئلة توجه إلى بايثيا عن طريق الكهنة، أما إجاباتها فكانوا يترجمونها، ويعيدونها إلى السائل كتابة في شكل بيتٍ من الشعر، وكانت الإجابة غامضة فيها شيء من اللبس حتى — إذا لم تتحقق الأحلام — لا يقال: إن مصدر الوحي قد أخطأ! ومع ذلك فقد كان كهنة أبولو على علمٍ وذكاء كبيرين، وكانت نصائحهم دائمًا سليمة.

وكانت دلفي مقصدًا لعددٍ كبير من الحجاج، وكان ازدهار مواسم الحج فيها داعيًا لإقامة مدينة كبيرة، يستطيع الحجاج أن يجدوا فيها المسكن وأماكن اللهو، ومحال بيع الهدايا للحجاج، وعندما كان يشتد الإقبال في المواسم الهامة، كانت الخيام تنصب حول المساكن، لتستوعب العدد الهائل من الزائرين.

وكانت الساحة المقدسة التي تحيط بمعبد أبولو محاطة بالأسوار، يخترقها طريق مقدس ملتوٍ يتجه إلى أعلى إلى المعبد، وعلى جانبي هذا الطريق المقدس، أُقيمت المعابد الصغيرة والتماثيل كهدايا من المدن والأقاليم المختلفة للإله، وكان يشرف على هذه الأبنية، وكلها على هيئة معابد، كاهن يمثل دور السفير لصاحبة الوحي.

فمثلًا إذا قدم أحد المواطنين من اسبرطة، يتجه أولًا إلى المبنى الخاص باسبرطة؛ حيث يقدم هديته للإله ثم يحدد له موعد التقدم بسؤاله لبايثيا.

وفي عهد الاحتلال الروماني نهب الإمبراطور نيرون دلفي، واستولى على أجمل تماثيلها، ومع ذلك عندما زارها بوسانيوس الرحالة المشهور الذي وفد عليها من آسيا الصغرى سنة ١٧٠ ميلادية، قدَّر عدد التماثيل التي بقيت فيها بثلاثة آلاف معظمها من البرونز.

ونظرًا لوقوع دلفي عند قاعدة صخرة عالية في منطقةٍ بركانية، كانت تتعرض دائمًا للدمار بواسطة الصخور التي تنهار عليها بتأثير الزلازل، ففي عام ٥٤٨ قبل الميلاد هدمت النيران معبد أبولو، وفي ٣٧٣ قبل الميلاد خربته الزلازل، وفي كل مرة كانت تجمع التبرعات من جميع أنحاء هذا العالم الصغير؛ لكي يعاد بناء المعبد.

وتحالفت الزلازل مع موجات السلب والنهب التي قام بها الأباطرة البيزنطيون الذين استولَوْا على كنوز المعبد ليزيِّنوا بها مدينة القسطنطينية، ومع غارات المغيرين من الشمال والصليبيين من الغرب، علاوة على الإهمال التام وعوامل الفناء الأخرى، لم يبق من عظمة دلفي القديمة سوى القليل.

وفي عام ١٨٩٢م ظهرت مدينة على مقربةٍ من الموقع القديم، أنشأها علماء الآثار الفرنسيون، وهي تضم فندقًا عصريًّا أنيقًا أنشأته الحكومة وهو يشرف على الوادي الجميل.

غير أن هناك بقايا من المعبد والمسرح والملعب وغيرها من الآثار، يمكن أن تعطي فكرة واضحة عن الأبنية الأصلية، وتسمح للزائر أن يتصورها في مخيلته، فالمسرح لا يزال يحتفظ بكيانه، وهو يستخدم في بعض المناسبات.

كما أن هناك متحفًا جميلًا عصريًّا يحوي الآثار الهامة، وأهمها: تمثال بالحجم الطبيعي لسائق عربة حربية من البرونز.

بين أنقاض الأكروبول

أيتها الأكوام الخربة! إنك خالدة وإن ضعفت، عظيمة وإن هويت، فليجمد ذلك القلب الذي يشرف عليك ولا يخفق كما تخفق قلوب العشاق فوق قبور عشيقاتهم!

بيرون

أقام الإغريق الأكروبوليس منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة؛ تمجيدًا لذكرى انتصارهم على الفرس، وفتكهم بالقائد سركيس، وإحراق أسطوله البحري.

وقد ظل الأكروبول مقر الأدب ومهد الحكمة ومصدر التشريع خلال أجيالٍ طويلة، شعَّت من جوانبه عبقريات سوفوكليس وبوربيدس، وهيرودتس وفيدياس وغيرهم من أصحاب الأسماء الخالدة في سجل الفكر الإنساني، ومن بقيت تعاليمهم نبراسًا في الأدب والفن والرياضيات والفلسفة، إلى ما قبل عصر النهضة الأوروبية، شهد سقراط وهو يَتجرَّع السم تقديسًا للعلم، وضحية الدعوة إلى حرية التفكير، بعد أن طلب منه أصحاب السلطان أن يتنكر لأفكاره وتعاليمه، وادَّعَوْا أنه يُفسد عقول الشبان، ويمحو المعتقدات التي ورثوها عن الآباء والأجداد.

والأكروبوليس كلمة إغريقية قديمة مكونة من مقطعين: «أكرو» ومعناها البقعة المرتفعة من الأرض، و«بوليس» أي المدينة، وفي معنى آخر الدولة. وقد شيد في كل بلد باليونان أكروبول، ولكن أعظمها شأنًا بلا شك أكروبول أثينا.

وكان أهل «الأكروبوليس» أناسًا ذوي حكمة وفطنة، لهم رجاحة العقل، والإيمان بحياة ضمنت لتراثهم نعمة الخلود، فشرعوا للبشرية قوانينها، ووضعوا نظمها وتعاليمها، وكرَّسوا أنفسهم لخدمة الحق بعد أن اتخذوا شعارًا لهم «اعرف نفسك بنفسك»، وكان

لهم مقام رفيع بين غيرهم من الأمم، فدَانَتْ لهم الشعوب بالطاعة، وأصبحوا أهل الغلبة والسيادة؛ لاعتقادهم أن العالم ألقى إليهم عبء تمدينه وحضارته، فظلوا قرونًا طويلة متحكمين في مصيره.

«الأكروبول» يطل على مدينة أثينا.

وقد شيد الأكروبول في عصر بركليس — العصر الذهبي لأثينا — وشاد الملوك والأمراء والعظماء قصورهم ومعابد آلهتهم على مقربةٍ منه، فجددوا لأثينا شبابها وبعثوا الحياة في جوانبها، في حين توفر علماء الأكروبول على النهوض بحضارة راقية، مؤسَّسة على قواعد الطبيعة وخالية من كل شائبة، فلا تأثُّر بعقائد أنيقة ولا تقاليد مرعية.

وعلى هضبة الأكروبول أقيم معبد البارتنون لأثينا المدينة، وهو يعدُّ بحق أجمل مجهود للعبقرية الفنية، وقد شيَّده الملك بركليس، وكان يحوي فيما مضى التمثالَ الذي صنعه فيدياس من العاج والذهب الوهاج لأثينا، وإلى جانبه «معبد النصر مقصوص الجناح» أقامه ثسيوس لمينرفا إلهة الحكمة، وقد تخيل المثَّال أن النصر إذا قصت أجنحته ظل في حظيرتهم لا يمكنه أن يطير عنهم؛ شأن الطير الذي تريد الاحتفاظ به؛ ولذا أطلق عليه «معبد النصر مقصوص الجناح».

وفي الجانب الشرقي ترى الاستاديون — أو كما يسمُّونه باليونانية «الأرينا» — وهو ملعب عظيم كان الأثينيون يلهون فيه بسباق الجياد، ويمارس شبابهم في ساحته ألوانًا من البطولة الرياضية.

وفي هيكل الحكمة نصبت تماثيل فتيات كاريا الثلاث، وشيد في الأركتيوم رواق العذارى المسمى Karyae نسبة إلى مدينة كاريا التي اشتهرت فتياتها العذارى بالرقص المقدس؛

تحفُّ به المقاصير والعُمُد المرمرية المشرئبة نحو السماء، كأنها تسمو خلودًا فوق مظاهر فن المعمار الحديث.

وعند سفح الأكروبول أقيم ملعب ديونيسوس، وهو يعد أقدم مسرح للدراما في العالم؛ إذ كانت تمثل في ساحته روايات سوفوكليس ويوربيدس وأشيلوس، والمسرح بدون سقف؛ لأن جو أثينا أميل للحراة، فكان من الطبيعي أن يفضِّل الأثينيون الهواء الطلق، والملعب مقسَّم إلى ثلاث مدرجات، ومقاعده كلها حجرية على شكل نصف دائرة.

وكان الملعب ملكًا للدولة؛ فهي التي تديره وتتولى اختيار الروايات وعرضها، وتمنح النظَّارة من الحكام وغيرهم تصاريحَ دخول مجانية مصنوعة من المعدن أو العاج، وقد نقش عليها اسم صاحبها ورقم مقعده، ولا تزال بعض هذه التصاريح حتى اليوم بالمتحف الوطني.

وفي هذه المسارح كانت تقام أحيانًا مباريات بين الممثلين والمغنين، أما الحكم في هذه المباريات فكان الشعب، فإن كانت الرواية والتمثيل متقنًا صفق طالبًا إعادة التمثيل، وإذا كان رديئًا ضج وطالب بإخراج الممثلين، وإذا كان متوسطًا أخرج الناس طعامهم وشرابهم، وأخذوا يطعمون ويشربون ويتسامرون دون مبالاة بالتمثيل.

وأمام أطلال أحد المعابد تشهد جزءًا من الجدار الأثري الذي اجتمع إليه تلاميذ سقراط، يتآمرون على خطفه لعشرين قرنًا خلت، ولا يزال الزائر حتى اليوم، يتبيَّن كتابات تركية منقورة في الصخر.

ويبدو أن الأتراك عند حكمهم لليونان اتخذوا من الأكروبول مركزًا للقيادة الحربية، وحوَّلوا البارتنون إلى مسجد، والأركتيوم إلى حرم للقائد العسكري، فلما هاجم الفينيسيون الأتراك، أطلق مورسيني قنابله على الأكروبول، فنسف مستودعات البارود وشبت النيران في مخازن الذخيرة، وتهدمت الأبنية والعمد.

جولة في أثينا

إن هذه الجزر التي تسير السفن بينها، ويرتسم الفناء على جبينها الماحل، هذه الجزر رفعت بالأمس الأنوار الصادقة، في صفاء الجو وفي مهبِّ العواصف؛ لاستمالة سفن الحق والحرية والجمال، فكل جزيرة كانت وحدة قائمة بذاتها، مكوَّنة من دولة شبه مستقلة، لها أفكار ومعتقدات خاصة، ونظرات في الدين والأخلاق والفلسفة، حتى نما من اختلاط أفكار أهل الجزر ما انتفعت به العقلية الإغريقية من الوجهة العملية، وفي هذا المحيط الممتزجة أمواجه بصنوف المعرفة، ومذاهب الحكمة والفلسفة والتشريع، طغت المدنية الإغريقية حتى عَمَّت العالم.

وانطلقنا من الباخرة نتجول في شوارع بيريه، ومررنا ببعض المقاهي ودور شركات الملاحة، ويقلُّنا ترام المترو في دقائق معدودة نحو «إلهة السلام وحامية العذارى»، ولكن ليس في أثينا ما يجذب الناس إليها أكثر من آثارها التي تخلع عليها روعة وجلالًا، وتجعل منها مهبط عشرات العلماء والمشتغلين بالحفريات الحديثة وآلاف السائحين، يأتون شتاءً أو صيفًا من أقاصي المعمورة؛ ليرتووا من الينبوع الذي تفجَّرت فيه العبقرية الإنسانية.

سألت نفسي وأنا أستقبل هذه العاصمة القديمة لأول مرة: أغربية هي أم شرقية؟ لقد حاول الأثينيون يوم أحرقوا الأسطول الفارسي أن يقسموا العالم إلى شرقٍ وغرب، وأن يقطعوا أوصال بلادهم من الشرق لتستغرب، ولكن نظرة واحدة إلى أثينا تدفعنا إلى الاعتقاد الجازم بأنها ليست غربية ولا شرقية، وأن أهلها يقتبسون من كل بلد، ويحاكون كل حضارة.

من المعتقدات اليونانية القديمة أن أثينا اكتسبت هذا الاسم؛ لأن نبتون وأثينا تناظرا في الحصول على شرف سيادة العاصمة، وقام الملك أركتيوس حكمًا بينهما، فمن يقدم أعزَّ الهِبَات وأنفسَ الهدايا ظفر بالأولوية، فتقدَّم نبتون وضرب الأرض بعكازه، فشقت وخرج

منها جوادٌ يقفز، وفسر ذلك بأنه «رمز الحرب» وتقدَّمت أثينا، وكانت قد خرجت من رأس زيوس أب الآلهة مدججة بسلاح الحكمة، ومسَّت الأرض بعصاها فنبتت للحال شجرة زيتون، وغصن الزيتون كان دائمًا رمزًا للسلام، وكانت هدية أثينا بالطبع هي المقبولة.

أثينا الجديدة.

من ذلك الحين أطلق على أثينا اسم «إلهة السلام وحامية العذارى»، والتصق الفوز والنصر باسمها، وظلت عذراء كما صانت عذرة الإثينيات، وقد أشير إلى ذلك برمز رُفِع فوق الأكروبول على هيئة غصن زيتون، بل إن أعظم نصب أقيم في الأكروبول كان لأثينا، وقد صوَّرها المثَّالون بشكلين؛ الأول: وهي جالسة على عرش ويداها إلى ركبتيها أو فوق صدرها، والثاني: وقد مدت ساقها كأنها تخطو إلى الأمام.

وأثينا عاصمة اليونان ظلت طوال ألف عام مركزَ العالم الغربي دون منازع، وهي اليوم مدينة حديثة يسكنها نحو ٨٠٠٠٠٠ من السكان، وتقع في وادٍ يبعد عن مينائها الصغير بيريه بأميالٍ قليلة. وفي داخل أثينا يطل جبلان؛ أحدهما: جبل ليكابيتوس، وتقع على قمَّته كنيسة بيضاء، ويبلغ ارتفاعه ٩٠٠ قدم، وجبل الأكروبول (ارتفاعه ٥٩٠ قدمًا) وتعلوه هضبة صخرية يتوسطها معبد بارثينون، وعندما تغمر الأضواء الكشافة هذا المعبد

ليلًا، ويتعذر على الناظر رؤية الجبل نفسه، يبدو المعبد وكأنه أنموذج مضيء من المباني، معلق في الهواء، لم تمسه يد الدهر بسوء.

وحول مدينة أثينا ثلاثة جبال صخورها رمادية اللون، وعليها بعض الأشجار، وهي جبل هايمثوس (٣٤٠٠ قدم) ويقع شرق المدينة، وجبل بنتلي (٣٧٠٠ قدم) الذي كان معدًّا لاستخراج الرخام الأبيض الذي كان يستعمل في بناء جميع مباني أثينا في العصور القديمة، يقع في الشمال الشرقي، وجبل بارنس (٤٧٠٠ قدم) ويقع في الشمال الغربي.

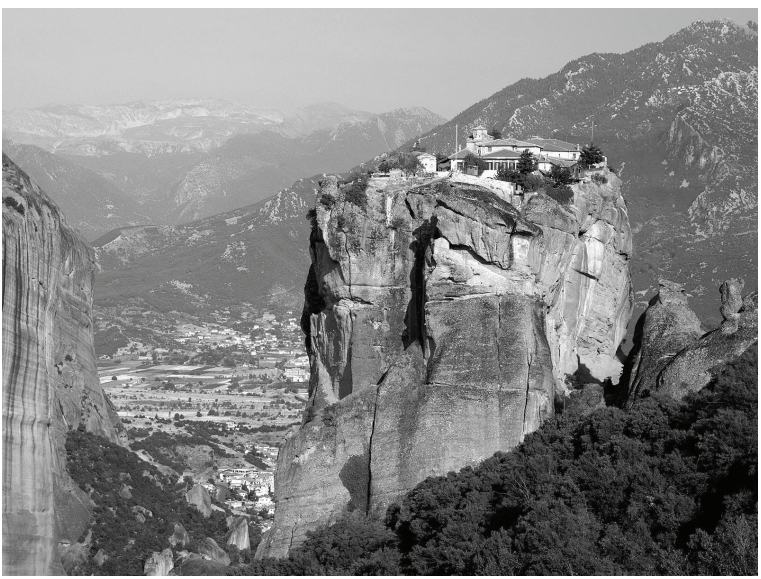

«ميتيورا» الجميلة.

وعلى قمة الأكروبول بجوار البارثينون تقع عدة آثار، أهمها: البروبيلاي وهي بوابة قديمة، تؤدي إلى القلعة ذات الأعمدة الفخمة.

وعند قاعدة الأكروبول يقع مسرح ديونيسوس وقوس هدريان ومعبد جوبيتر، وبقايا مباني مدينة عتيقة تنتمي إلى المدينة القديمة التي شيدت حول قاعدة القلعة.

وبالإضافة إلى الآثار القديمة تشتهر أثينا بكثيرٍ من الكنائس البيزنطية التي تزيِّن جدرانها الصور الملونة وروائع القيشاني، وأهمها دير دافني والكابنيكاريا وكنيسة القديس تيودور.

وهناك متاحف عديدة ممتازة في أثينا، مثل: متحف الآثار القديمة الوطني، ومتحف الأكروبول، والمتحف البيزنطي، ومجموعة بيناكي للملابس والفنون.

وعلى مرمى حجر من المدينة، يستطيع السائح أن يستمتع بمصايف عديدة، منها: الجزر والشواطئ الرملية الممتدة على طول الساحل في خليج سارونيك وسونيون التي تشتهر بمعبد بوسيدون ماراثون، وبها بحيرة وسد، وكيفيسيا وجبل بارنس.

بلاد عريقة في الديمقراطية

ينص الدستور اليوناني على أن اليونان دولة ديمقراطية يرأسها ملك، أو بعبارة أخرى حكومة ملكية دستورية.

والملك الحالي «بول الأول» تولى الحكم بعد وفاة أخيه الملك جورج الثاني في سنة ١٩٤٧م، وهو من أصل دانمركي، كما أن زوجته الملكة فردريكا تنتمي إلى أسرة ساكس كوبورج، وعقب الحرب مباشرة لقيت الحكومة الملكية بعض المتاعب، ولكنها أصبحت اليوم حكومة شعبية تتمتع بمحبة جميع أفراد الشعب.

والملك بول هو الابن الثالث للملك كونستانتين والملكة صوفيا، وقد ولد بأثينا في عام ١٩٠١م، وهو حفيد الملك جورج الأول الذي أسَّس الأسرة المالكة اليونانية الثانية عام ١٨٦٣م.

ولما أتم «الأمير» بول دراسته الثانوية التحق بمدرسة البحرية اليونانية، وتخرج فيها وهو في الحادية والعشرين من عمره، وقد خاض غمار القتال في حرب آسيا الصغرى سنة ١٩٢٢م، والحرب اليونانية الإيطالية سنة ١٩٤٠م.

وكان قد اضطر في عام ١٩٢٢م إلى مغادرة اليونان قبل أن يغادرها أخوه الملك جورج الثاني بمدةٍ قصيرة؛ وذلك على أثر الأحداث السياسية التي وقعت في البلاد خلال تلك السنة.

وقد أقام في الخارج بعيدًا عن وطنه حتى سنة ١٩٣٥م، وفي خلال هذه الأعوام التي قضاها في المنفى زار بريطانيا والولايات المتحدة، وقضى في كل منهما مدة من الزمن، وفي خلال إقامته في بريطانيا التحق بالبحرية البريطانية للدرس والتمرين، ثم اشتغل عاملًا تحت اسم مستعار لمدة سنة في مصانع «آرمسترونج» للطائرات بكوفنتري ببريطانيا، وانتقل بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث قضى سنتين، ثم دفعه الحنين للوطن إلى زيارة اليونان مُتخفِّيًا سنة ١٩٣٠م.

وأخيرًا عاد إلى بلاده نهائيًّا مع أخيه الملك جورج الثاني وبقية أعضاء الأسرة، وذلك بعد إحياء الملكية في عام ١٩٣٥م، والتحق عقب عودته إليها بالبحرية اليونانية، كما قضى مدة في سلاح الطيران والقوات البرية.

وفي ٩ يناير من سنة ١٩٣٨م عقد قرانه على الأميرة فردريكا، وكانت تلقب بأميرة هانوفر، وسرعان ما ظفرت الأميرة بمحبة الشعب اليوناني وتقديره لها، وقد أنجبت للملك أولادًا كانوا وما زالوا موضع حب الشعب، وهي تشاركه دائمًا حياة الوطن وأمانيه القومية.

ومما يذكر للأمير بول أنه خاض غمار المعارك دفاعًا عن بلاده ضد الألمان، عندما سارعوا إلى مساعدة حلفائهم الإيطاليين في غزوهم اليونان إبان الحرب العالمية الثانية، وذلك بعد أن صد اليونان الجيش الإيطالي الفاشيستي وأرغموه على التراجع.

ويذكر الشعب اليوناني بالفخر أن الأمير بول استبسل في الذود عن وطنه، وأنه لم يغادر البلاد مع أخيه الملك جورج وبقية أفراد الأسرة إلى المنفى في مصر، إلا قبل استيلاء الألمان على اليونان كلها بأيامٍ قليلة.

وفي المهجر واصل الأمير بول نشاطه الحربي والسياسي لتحرير بلاده، فكان يتفقَّد القوات اليونانية في الشرق الأوسط، كما اشترك في العمليات الحربية بجبهة العلمين، وساهم في الأعمال التي قامت بها البحرية اليونانية، ومنها الهجوم الجريء الذي شنته المدمرة «مياوليس» في المنطقة الواقعة بين الإسكندرية وتارانتو، وكثيرًا ما وجه بالراديو أحاديث وطنية رائعة إلى شعب اليونان المحتلَّة وإلى القوات المسلحة؛ مما دفع الكثير من الضباط اليونانيين إلى الالتجاء إلى مصر للاشتراك في القتال ضد المحور.

وانتهت الحرب وعاد الأمير إلى وطنه.

وبعد عودته إلى اليونان سنة ١٩٤٦م، اهتم الأمير بول بتعمير البلاد ورفع مستوى حياة الشعب اليوناني.

ولما تولى العرش بعد وفاة أخيه الملك جورج، أنشأ في ٢٥ مايو سنة ١٩٤٧م مؤسسة الإصلاح الأهلية التي يتناول نشاطها جميع النواحي الاجتماعية، وفي ذلك الوقت أخذت اليونان تبذل جهودًا كبيرة لمكافحة الثورة الشيوعية، فساهم الملك بول بوصفه قائدًا أعلى للجيش اليوناني، مساهمة فعالة في كفاح الشعب ضد تلك الثورة المخرِّبة.

وفي خلال السنوات الثلاث التي استمرَّت فيها محاربة الشيوعيين زار الملك ميادين القتال، ولما انتهت الحرب بسحقهم مضى الملك بول في نشاطه الإصلاحي العظيم.

وإلى جانب ما يتمتع به الملك بول من ميزاتٍ جليلة، كجندي باسل ورئيس عظيم ومصلح كبير، فإنه ذو ثقافة غزيرة في الفلسفة والآداب العالمية، ونذكر على سبيل المثال أنه درس فلسفة أفلاطون دراسة عميقة.

فلاحة جميلة من إقليم «أنيكا» تقدم لملك اليونان وملكتها عنقودًا من العنب بمناسبة افتتاح موسم الكرم.

أما الملكة فردريكا فقد ولدت في ١٨ أبريل سنة ١٩١٧م، لأبويها دوق ودوقة برونسويك لونبورج من نبلاء بريطانيا، وتلقَّت علومها في المدارس البريطانية والإيطالية الراقية، وهي تبذل معظم جهودها ونشاطها في الأعمال الخيرية، ولا سيَّما ما يتعلق منها بالأطفال.

وفي أثناء الهجوم الإيطالي على اليونان، قامت ملكة اليونان وأميرتها في ذلك الوقت بتنظيم المستشفيات والمصحات لعلاج الجرحى من رجال القوات اليونانية المحاربة، وأنشأت مؤسسة إعداد الملابس والأغذية للجنود.

وفي أثناء إقامتها الاضطرارية في المهجر، بعد استيلاء الجيش الألماني على اليونان، أنشأت منظمة الإغاثة والترفيه لخدمة جنود الحلفاء، ولما عادت إلى بلادها في أكتوبر

سنة ١٩٤٦م، استأنفت نشاطها في ميدان الخير على مدى واسع، ومما يذكر لها أنها كانت ترافق الملك في زيارته للمناطق الخطرة إبان حرب مكافحة العصابات الشيوعية؛ لتواسي المنكوبين وتشجِّع المكافحين، واتفق أن مرض الملك ذات مرة، فنابت عنه في زيارة إحدى هذه المناطق، وحمل رسالته إلى جنود الجيش.

وفي أثناء هذه الحرب القاسية وبعدها، قامت الملكة بتنفيذ مشروعات واسعة النطاق؛ لإيواء اللاجئين من الأقاليم المنكوبة ورعاية الأطفال اليتامى والمشردين؛ مما ضاعف محبة الشعب اليوناني لها، ولقد بلغ من رعايتها للأطفال اليونانيين أن الهيئة العالمية لرعاية الطفولة انتخبتها عام ١٩٤٩م «الأم الأولى» لذلك العام.

أما ولي العهد الأمير كونستانتين فقد ولد في اليوم الثاني من شهر يونيو سنة ١٩٤٠م، والتحق سنة ١٩٤٨م بمدرسة أنا فرينا الأهلية اليونانية التي يقوم نظام التعليم والتربية فيها على أساسٍ من فلسفة أفلاطون وروح التقاليد اليونانية المسيحية، وكانت تضم في ذلك الوقت ١٧٠ تلميذًا من مختلف الطبقات الاجتماعية، ولم تخصَّه هذه المدرسة دون زملائه من الطلاب بأية ميزة، وإنما كان يتلقَّى علومه ويعامل على قدم المساواة معهم جميعًا.

وفي سنة ١٩٥٦م بدأ ولي العهد تدريبه العسكري في مختلف أقسام الجيش اليوناني، وفي صيف تلك السنة أقسم يمين الولاء التقليدي للوطن في حفلةٍ رسمية خاصة، ثم التحق بمدارس الجيش والطيران والبحرية على التوالي.

وفي ٢ يونيو سنة ١٩٥٨م بلغ سن الرشد، وأدَّى اليمين بوصفه ضابطًا في القوات المسلحة اليونانية، وقد عُنِي الملك والملكة بتلقينه التعاليم الدينية التي يحرصان عليها أشد الحرص، وهو إلى جانب ذلك يُبدي تفوقًا ملحوظًا في دراسة الآداب والفنون، والإلمام بالتاريخ اليوناني، وفي الألعاب الرياضية، ويتمتع كوالديه بمحبة الشعب.

ودور الملك في الحكم ببلاد اليونان دور رمزي كما هو الحال في إنجلترا، فهو الذي يعين الزعيم السياسي صاحب الأغلبية في البرلمان كي يرأس الوزارة، وهو الذي يوقِّع القوانين كي تصبح نافذة المفعول، ولكن كل هذه السلطات ذات صبغة اسمية فقط.

ويحكم اليونان مجلس تشريعي واحد اسمه «الفولي»، وتتألف الوزارة من حزب الأغلبية، أو من مجموعة مؤتلفة من الأحزاب إذا لم يحصل أحد الأحزاب على الأغلبية في الفولي. ويرأس الوزارة الحالية المسيو كارامانليس.

وقد عدل الدستور وصدر الدستور الجديد في أول يناير سنة ١٩٥٢م، وأعطى حق الانتخاب للذكور والإناث الذين يزيد عمرهم على الحادية والعشرين.

وقد اشترك ٧٥ في المائة ممَّن لهم حقُّ الانتخاب في انتخابات سنة ١٩٥٢م.

وقد حصل حزب الأغلبية في تلك الانتخابات على ٢٣٩ مقعدًا من ٣٠٠ مقعدًا في البرلمان، وكان هذا الحزب قد أنشأه في العام السابق المارشال باباجوس بطل اليونان في الحرب، وكان صاحب الفضل في موقف اليونان المجيد خلال الحرب العالمية الثانية، والقضاء على حرب العصابات، ثم استقال من الجيش؛ لكي يكون حزبًا ائتلافيًّا وطنيًّا، ويقضي على الموقف المائع الذي ساد بلاد اليونان بعد انتهاء الحرب الأخيرة، وعلى الرغم من أن للحزب أعضاء من ذوي الآراء التقدمية، إلا أنه يعتبر حزبًا محافظًا أو حزبًا يمينيًّا.

وقد أجريت الانتخابات العامة التالية في ١٩ فبراير من عام ١٩٥٦م، وكان على رأس الحكومة عندئذٍ المسيو كونستنتين كرامنليس، الذي ألف حكومته الدستورية بعد فوز حزبه في الانتخابات، وكان ذلك في ٢٨ فبراير من عام ١٩٥٦م.

ثم أجريت انتخابات عامة أخرى في ١١ مايو من عام ١٩٥٨م؛ ولذلك فإن الحكومة اليونانية الحالية هي ثالث حكومة دستورية تتولى الحكم، وقد أدت اليمين الدستورية في ١٧ مايو من عام ١٩٥٨م.

ورئيس الوزراء الحالي المسيو كرامنليس، وهو الذي زار مصر في السنوات الأخيرة، يعتبر من أكبر السياسيين اليونانيين، كما يعتبر بحق خليفة المارشال باباجوس.

فقد حدث على أثر وفاة المارشال باباجوس، أن كلفه الملك بول بتأليف الحكومة، وتقبَّل الشعب اليوناني هذا الاختيار بسرورٍ عظيم وحماس بالغ.

وقد واجه رئيس الوزراء الجديد عددًا كبيرًا من المشاكل الخطيرة، ففي ميدان السياسة الخارجية واجه مشكلة قبرص، أما في الداخل فقد واجه الحاجة الماسَّة للإسراع في إعادة بناء المساحات التي تأثرت من جراء الزلازل التي وقعت في اليونان، علاوة على التطوير الاقتصادي للبلاد.

وهذا الشاب الطموح الذي اكتسب خبرة أكيدة واتصف بقوة عزيمة، لم يتزحزح أمام الصعوبات التي قابلها، ورغبة منه في تهدئة الحالة السياسية للبلاد، والعمل على حل مشاكلها، كوَّن في خلال أربعة أشهر الحزبَ الراديكالي الوطني المتحد، الذي انضم إليه في الحال ١٩٠ عضوًا من أعضاء البرلمان.

وفي انتخابات ١٩ فبراير سنة ١٩٥٦م كوَّنت جميع أحزاب المعارضة بما فيها الحزب الشيوعي جبهةً ضد الحزب الراديكالي الوطني، وتحت تأثير الحزب الشيوعي المنظم اتخذت هذه المعارضة ميولًا تُعارض الاتجاه الغربي، وكانت هذه السياسة في ذلك الوقت سياسةً محبوبةً بسبب مشكلة قبرص.

وأثناء الانتخابات لم يتردَّد مسيو كرامنليس في التقدُّم ببرنامج مُوالٍ لسياسة الغرب، وواجه الرأي العام بشجاعة.

ورغم دقة هذا الموقف فقد فاز في الانتخابات، وحاز ١٦٥ صوتًا ضد ١٣٥ صوتًا حصلت عليها جميع أحزاب المعارضة المتحدة.

وفي ١٨ فبراير ١٩٥٦م ألف مسيو كرامنليس حكومته الجديدة الثانية، التي استمرَّت تحكم حتى آخر مارس من عام ١٩٥٨م، وخلال ذلك أخذ مسيو كرامنليس ووزراؤه على عاتقهم حلَّ عدة مسائل شائكة، واجهوها بثقةٍ وإيمان تام.

وقد استمر في كفاحه من أجل الحق الشرعي لجزيرة قبرص؛ وهو حق تقرير المصير.

وعلاوة على ذلك لم يتوان مسيو كرامنليس وحكومته عن تنمية الاقتصاد اليوناني، وقد نجحوا في رفع الدخل الزراعي بنسبة ٣٥٪ تقريبًا، وفتح أسواق للإنتاج الزراعي في الخارج.

وأثناء هذه المدة حقق الرئيس كرامنليس استقرار الدراخمة، التي أصبحت من العملات القوية في أوروبا بعد الانهيار الذي أصابها في أعقاب الحرب، وأنهى عدة مشروعات هامة للأشغال العمومية، مكملًا بذلك العمل الذي عُهد به إليه، عندما كان وزيرًا للأشغال العمومية.

وتوقف العمل الإنشائي الذي كان يقوم به كرامنليس وحكومته في أول مارس ١٩٥٨م، بعد تخلي ١٥ نائبًا من حزبه كان بينهم وزيران، إذ سحبوا ثقتهم من الحكومة بدعوة أنهم لا يقرون قانون الانتخابات الذي وضعته الحكومة. وعلى الرغم من أنه كان صاحب أغلبية في البرلمان؛ إذ يناصره ١٥٢ عضوًا، وكان في استطاعته أن يشكل في الحال وزارة جديدة، إلا أن كرامنليس قدم استقالته للملك، الذي أشار بحل البرلمان وإجراء انتخابات عامة.

وقد فاز حزبه في الانتخابات بأكثرية ١٧٢ عضوًا، وقام كرامنليس بتشكيل وزارته الثالثة في ١٧ مايو سنة ١٩٥٨م، وفي نفس اليوم تعهد للشعب اليوناني بالمحافظة على الاستقرار الاقتصادي في اليونان، والعمل على زيادة الدخل الوطني بالاستجابة إلى احتياجات الشعب، والنضال لتحرير الشعب القبرصي، والمحافظة على الكتل الشعبية من الانحرافات الضارة.

وحياة كرامنليس بسيطة وهو متواضع في اتصالاته الشعبية، ويمكن أن يقال: إن شخصيته وسلوكه يعتبران مثلًا طيبًا للجميع. وعلاوة على ذلك فقد أظهر كياسة سياسية وحسن تصريف للأمور، وقدرة على حل الأزمات بسرعة وإحكام خلال توليه رئاسة الحكومة، وبهذه المواهب نجح في تثبيت مركزه كزعيم سياسي قوي.

اليونان الحديثة

إن بلاد اليونان المشمسة التي تعرضت لما لم تتعرَّض له أية أمة في أوروبا، لسنين طويلة من الحروب، والاحتلال الأجنبي، والحرب الداخلية المريرة، أصبحت اليوم تستمتع باستقرارٍ سياسي واقتصادي، ودرجة لا بأس بها من الرخاء.

ولكن مع ما أحرزته اليونان من تقدُّم في الصناعة والفنون، خلال السنوات الثلاثين المنصرمة، فإنها ما برحت عاجزة عن أن تكفل لمعيشة شعبها مستوى رفيعًا، ومنذ جيل مضى نزعت الدولة الملكيات الكبيرة من الأراضي، ووزعتها على أسر الفلاحين الفقراء، ولكن نصيب كل أسرة من الأراضي الموزعة لم يسد عوزها، فضلًا عن أنه آخذ في الانحسار والانكماش، مع تكاثر السكان وتزايد العمران على كر الأيام، ورغم اصطناع الأساليب الحديثة في الزراعة، والإكثار من إنشاء المصانع، وإنجاز العديد من مشروعات الإصلاح، فإن الإحصاءات الرسمية تُنبئنا بأن مليونين من اليونانيين، أو ما يناهز ربع سكان البلاد، ما يزالون يعيشون على مستوى ضعيف من الحياة.

فهذا العسر الذي ابتليت به اليونان مقترنًا بجدب أراضيها، قد جعل من اليوناني رجلًا واسع الحيلة، متفتق الذهن، جم المرونة، سهل التكيف، يعرف كيف «يعتصر الماء من الحجر» كما يقولون.

والجهود التي بذلتها اليونان في هذا العصر الحديث؛ لكي تسير مع ركب الحضارة الأوروبية، وتدرك ما فاتها من أسباب التقدم — كانت جهودًا شاقة حينًا ومضنية أحيانًا. ولم يكن في الوقت متسعٌ للتفريط ولا بقيةٌ للتكاسل، فالثورة الصناعية كانت قد بدأت تترعرع في الغرب، وأخذت أوضاع الحياة تتبدل هناك، وفي أوروبا الشرقية نبتت قوميات جديدة، وراحت تتدجج بالسلاح تأهُّبًا للدخول في مغامراتٍ إقليمية جديدة، ولم يقف اليونانيون مكتوفي الأيدي بل فعلوا في تذليلهم للعقبات المادية كل ما في طوقهم أن يفعلوه

للنهوض بأمتهم إلى مستوى العصر الذي يعيشون فيه؛ فنقلوا عن إنجلترا وفرنسا العلوم السياسية والنظم البرلمانية وما إليها، واقتبسوا من فرنسا الأنظمة القضائية والإجراءات الإدارية، وأخذوا عن ألمانيا نظمها الجامعية وأساليبها العلمية.

جامعة أثينا عنوان اليونان الحديثة.

وكانت اليونان متأثرة بالمدرسة الإيطالية في حقل الفنون والآداب، فاتجهت فيما بعد إلى المدرسة الفرنسية. أما طرق التفكير والأنظمة الاجتماعية فقد وردت ينابيعها العذبة في جميع بلدان أوروبا.

إن اليونان تجدد اليوم شبابها، وتمضي قدمًا في سعيها إلى حياة أكثر إشراقًا وأعلى مكانة.

وبلاد اليونان التي وضعت أسس الحضارة الغربية منذ أكثر من ألفي سنة، تعتبر اليوم أنموذجًا للتقدُّم الاقتصادي بعد الحرب، وهي أيضًا ميدان من الميادين المقاومة للشيوعية، والسلام والأمن مستتبَّان فيها في ظل حكومة مدنية تسيطر على الموقف من جبال مقدونيا حتى جزيرة كريت، ومن البحر الأيوني حتى بحر إيجة.

ومنذ بضع سنوات انتهى التضخم المالي، وبدأ عهد جديد من الاستقرار.

وتدل التقارير على أن قيمة المنتجات الزراعية والصناعية تفوق ما كانت عليه قبل الحرب، كما زاد احتياطي الدولارات والعملات الأجنبية، كما أن هناك توازنًا في أرقام المدفوعات الدولية واختفت السوق السوداء، بعد أن تبين أن نسبة الأسعار في السوق

السوداء والسوق الحرة تكاد تكون واحدة، وفي وسع كل يوناني أن يستورد أي سلعة يريدها من أية جهة، وأن يدفع ثمن ما استورده بالدراخمة.

فالتجارة في بلاد اليونان اليوم تجارة حرة، وكل المعاملات التجارية تسير وفق نظام موحد وثابت، ولا تدفع الحكومة أية إعانات للصادرات، وليس هناك قيود على الواردات، كما أن احتياطي الذهب والدولار يزداد باستمرار؛ وبذلك أصبحت اليونان إحدى الدول القلائل في أوروبا، التي تتوازن معاملاتها المالية مع الولايات المتحدة.

وهبوط الأسعار الذي حدث عام ١٩٥٣م، قد ضاعف من دخول المُصدِّرين اليونانيين، و٦٠٪ من السكان يعتمدون على الزراعة، بينما ٩٠٪ من الصادرات تعتمد على الزراعة أيضًا.

وكان لهبوط الأسعار أكبر الأثر في جعل بلاد اليونان مركزًا سياحيًّا هامًّا في أوروبا؛ فإن تدفق الزائرين الأجانب يتزايد يومًا بعد يوم بنسبةٍ تزيد على أي بلدٍ آخر في أوروبا، كما ضاعف هبوط الأسعار من القوة الشرائية، وزاد من كمية التحويلات المالية التي يرسلها اليونانيون المقيمون في الخارج كل عام.

وقال أحد الخبراء في أثينا وقتئذٍ: «إن بلاد اليونان قد أصبحت جنة علماء الاقتصاد.» فإنه يندر أن يسيطر علماء الاقتصاد سيطرة كاملة على الاقتصاد الكامل لأمةٍ ما، كما سيطروا عليها في اليونان، زد على ذلك الموارد الكبيرة التي وضعت تحت يدهم في تلك البلاد.

ولقد قام الصندوق المالي الدولي بوضع تقرير في عام ١٩٥٠م، تضمن المشروع الأساسي لخطة التنمية الاقتصادية، وكان أهم ما طالب به وقف التضخم المالي، وضرورة فرض فترة للاستقرار، ثم تخفيض الأسعار عندما تصبح للعملة قيمةٌ يعتد بها، ولقد نفذ المشروع بنجاح.

ومن الطبيعي أن تعتمد القيمة الحقيقية للعملة على المقدرة على الإنتاج؛ ولذلك كان الجزء الأكبر من المشروع الاقتصادي مخصصًا لإعادة الإنشاء والتوسُّع في وسائل الإنتاج، وقد ظهر مدى النجاح الذي وصل إليه هذا المشروع في السنوات الثلاث الأولى من تنفيذ البرنامج، عندما بلغت قيمة الواردات ٤٠٠ مليون دولار سنويًّا، فما لبثت أن هبطت في عام ١٩٥٣م إلى النصف؛ وذلك لأن الاقتصاد اليوناني ركز اهتمامه على الزراعة التي جعلت من بلاد اليونان مركزًا لتصدير الأطعمة.

وقد ارتفعت قيمة الصادرات، ومعظمها يعتمد على الزراعة، كما ظهرت هناك صناعات جديدة، أهمها: صناعة التعدين، وما لبثت قيمة الصادرات أن تضاعفت، وتبلغ قيمتها

اليوم نحو ١٥٠ مليونًا من الدولارات في العام، إن أرقام الواردات والصادرات، يضاف إليها الإيرادات غير المنظورة، مثل: إيراد السياحة والشحن التي ارتفعت إلى أربعة أضعاف، قد وازنت ميزانية الدولة، ولقد ساعد نجاح هذا البرنامج على الإقلال من اعتماد البلاد على المساعدات الأجنبية.

ولقد أثبت هذا أن بلاد اليونان استطاعت العودة إلى ميزانها التجاري العادي في وقتٍ سريع، وأنها اليوم تسير على أوضاعٍ اقتصادية سليمة، ولكن مع كل هذا لا تزال هناك بعض المشاكل التي قد يستغرق حلُّها عدة سنوات.

ومن أهم هذه المشاكل ازدياد عدد السكان، وتزايد عدد المتعطلين في المدن، أما مشكلة المشاكل فهي عدم وجود مجالٍ كافٍ للعمال في الريف، ويقول أحد كبار موظفي حكومة اليونان: إن عددًا كبيرًا من العمال في الريف، لا يعمل الواحد منهم سوى مائة يوم في السنة.

كذلك يلاحظ أن نسبة المواليد في بلاد اليونان مرتفعةٌ جدًّا بالمقارنة مع باقي دول أوروبا، ولا تستطيع الصناعات الصغيرة أن تستوعب هذا العدد المتكاثر من العمال الزراعيين؛ ولذلك لم يكن هناك من حلٍّ إلا الاعتماد على سياسة التصنيع، وهو ما فعلته اليونان.

ومشكلة تزايد عدد السكان في سوق العمل، قد تُحَلُّ أيضًا بواسطة الهجرة على نطاقٍ واسع، ولكن من الصعب الاعتماد على هذه السياسة اعتمادًا تامًّا؛ ذلك لأن مناطق الهجرة في الولايات المتحدة وجنوب أمريكا واستراليا لا تستطيع أن تستوعب إلا نصف العدد، الذي يزيد سنويًّا في اليونان طبقًا للنسب المقرر قبولها هناك.

تقدم الإنتاج الزراعي

كانت اليونان بلادًا زراعية وستبقى دائمًا كذلك، فليس لها موارد معدنية أو قوى محركة، حتى تصبح أمة صناعية كبيرة، ويبلغ عدد المشتغلين بالزراعة أكثر من ٦٠ في المائة من عدد السكان، كما أن ٩٠ في المائة من صادراتها من المنتجات الزراعية.

ولقد كان تقدمها في هذا المضمار ملحوظًا خلال السنوات القليلة التي انقضت منذ عام ١٩٤٨م؛ ففي ذلك العام كادت الأمة تموت جوعًا إذ قضت حرب العصابات على البقية الباقية من إنتاجها الضئيل بعد الحرب، وظهرت بوادر مشاكل الهجرة والإسكان، ومع هذا لم تُفرض قيود على الطعام في بلاد اليونان، وأصبحت البلاد اليوم تصدر الطعام إلى الخارج بكمياتٍ كبيرة.

وفي عام ١٩٤٨م استوردت البلاد ما قيمته ١٦٧ مليون دولار من الأغذية، بينما كانت الصادرات الزراعية لا تزيد قيمتها عن ٨٣ مليونًا من الدولارات، أما في السنة المالية الأخيرة فلم تستورد اليونان سوى ما قيمته ١٥ مليون دولار تقريبًا من الأغذية، بينما بلغت قيمة صادراتها من المنتجات الزراعية ١١١ مليون دولار.

ولقد استطاعت الحكومة أن تصل إلى هذا النجاح بواسطة تركيز اهتمامها على إنتاج الغذاء للاستهلاك المحلي، ومع ذلك لم تهمل الحكومة المحاصيل التي تصدرها.

ولقد كان الهدف الأساسي لاهتمام الحكومة هو القمح، وقد وصل إنتاجه اليوم إلى ١٨٣ في المائة من إنتاجه قبل الحرب، فقد زادت مساحة الأراضي الزراعية التي تزرع القمح من ٨٥٠٠٠٠ هكتار إلى أكثر من مليون هكتار، وارتفع الإنتاج من ٣٦٠ كيلوجرامًا في الفدان إلى ٥٨٠ كيلوجرامًا، ولقد خصص ٤٠ في المائة من الأراضي الزراعية لزراعة الحبوب.

إن الميزانية التي رصدت للتقدم الزراعي، قد خصصت لإصلاح الأراضي وموارد المياه، وبناء السدود للوقاية من الفيضانات، وشق المصارف والترع.

ويرجع هذا الارتفاع الكبير في الإنتاج إلى الخدمات الزراعية التي قدمت على نطاقٍ واسع؛ فقد تقدم ٤٠٠ من الخبراء وشرعوا في تدريب الفلاحين على الزراعة، وتهجين البذور والتسميد وإدارة المزارع، وإنتاج الأغذية ومكافحة الآفات وغيرها، وقد حدث مثلًا في عام ١٩٥٢م أن رفضت الولايات المتحدة التصريح بدخول ٥٤ في المائة من كمية التين اليوناني الذي صُدِّر إليها، ولكن اليوم لا يزيد مقدار ما يرده الحجر الصحي على نسبةٍ ضئيلة جدًّا.

وإنتاج القطن في بلاد اليونان اليوم يبلغ ٢١٤ في المائة مما كان عليه قبل الحرب، واليونان اليوم تصدر القطن إلى الخارج، أما إنتاج الأرز فقد ارتفع إلى ٢٠٠٠ في المائة، ولأول مرة في التاريخ تصبح اليونان مصدرة للأرز.

غير أن تصدير اليونان للفاكهة المجففة بدأ في الهبوط؛ بسبب زيادة استهلاك العالم للأطعمة المحفوظة في العلب أو المثلجة، ولكن من جهةٍ أخرى أخذ العالم يُقبل على شراء الدخان اليوناني أكثر من ذي قبل، ويزرع الدخان في شمال تراقيا، وهو يكون نصف صادرات البلاد، ويبلغ إنتاج الفدان اليوم ١٦٠ في المائة، عمَّا كان عليه قبل الحرب.

وعلى الرغم من هذه الأرقام المشجعة، فهناك مشاكل يجب أن تحل، فإن معظم بلاد اليونان أراضٍ جبلية صخرية أو مرتفعات جرداء، وتبلغ نسبة الأراضي الزراعية ١½ فدان لكل شخص، وتبلغ الأراضي الزراعية ١٧ في المائة من مساحة البلاد، ومعنى هذا أن هناك تضخُّمًا في عدد السكان أو بمعنى آخر بطالة.

وتقسَّم الأراضي الزراعية إلى قطعٍ صغيرة مما يتفق مع المبادئ الاقتصادية السليمة، و٥٨ في المائة من هذه القطع تقل مساحة كل منها عن ١٢ فدانًا، كما أن ٣٣ في المائة منها تتراوح مساحة كل منها ما بين ١٢ و٥٠ فدانًا.

واستخدام الكهرباء على نطاقٍ واسع في اليونان بعد الحرب، سيؤدِّي كما يقول الخبراء الزراعيون إلى المساهمة في عملية التشجير أو زراعة الغابات.

فليس ببلاد اليونان بترول أو فحم، ولم يستخدم «اللجنيت» الذي لا يعتبر من الأصناف الجيدة، إلا حديثًا في العمليات التجارية؛ ولذلك فقد تعود الناس إذا احتاجوا إلى وقود للحرارة أو الطهي أن يقطعوا الأشجار من سفوح التلال، وأصبحت أجزاء كبيرة من البلاد جرداء، خصوصًا عندما انقطع استيراد الوقود أثناء الحرب، والآن وبعد أن وصلت الطاقة الكهربائية إلى كثير من المناطق الريفية، يتوقَّعُ الكثيرون أن يكثر السكان من استخدامها للطهي والحرارة؛ وبذلك يساهمون في المشروعات الكبرى التي تخطط الآن لإعادة تشجير مناطق الغابات السابقة.

التصنيع في اليونان

يعجب الزائر لبلاد اليونان في هذه الأيام، ويتساءل: كيف تأتي لها أن تَطْفِر هذه الطفرة الرائعة، وتحرز كل ذلك التقدم الباهر في كل مجالات الحياة في مدى السنوات القلائل الماضية، وبخاصة في مضمار الاقتصاد.

والصناعة تحتلُّ اليوم في اليونان المقام الثاني في الاقتصاد الوطني، وتجيء التالية مباشرة للزراعة، ويتضح هذا جليًّا إذا أدخلنا في حسباننا رءوس الأموال المستخدمة في الصناعة، وحجم إنتاجها والقوة العاملة فيها، والتحسُّن الذي طرأ على المنتجات الزراعية المهمة والخامات المحلية، وازدياد إيراد الحكومة والدخل القومي، وارتفاع مستوى المعيشة للشعب عامة.

وقد جاوزت قيمة الإنتاج الصناعي اليوناني في عام ١٩٥٦م، ٤٣٠ مليون دولار، وبلغ عدد المؤسسات الصناعية العاملة في المدة نفسها ٣٠٠٠ مؤسسة، وتراوحت حصة الصناعة اليونانية في الدخل القومي، في المدة من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٥م ما بين ٢٠ و٢٦٪.

ومما يسترعي النظر فيما يتعلق بالمواد الخام التي استخدمتها الصناعة اليونانية، أن نسبة ما أنتج منها محليًّا، وما استوردته من الخارج في عام ١٩٢٨م بلغ ٥٧٪ و٤٣٪ على التوالي، في حين جاوزت نسبة المواد الخام المنتجة محليًّا عام ١٩٥٦م، ٨٠٪؛ ومعنى ذلك أن اعتماد الصناعة اليونانية على المواد الخام المستوردة من الخارج، قد قلَّ إلى ما دون النصف بالقياس إلى عام ١٩٢٨م.

ومن ناحيةٍ أخرى، لو أننا عقدنا مقارنة فيما يتعلق بالأيدي العاملة المستخدمة في الصناعة اليونانية (قياسًا إلى عام ١٩٢٨م أيضًا)، لوجدناها قد تضاعفت اليوم ثلاثة أمثال ما كانت عليه، ويتضح وجه الأهمية في هذه الزيادة، إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن الحاجة إلى الأعمال اليدوية قد قلَّت، بالنظر إلى التطوُّرات الفنية في الآلات الميكانيكية.

ومما يزيد من أهمية هذا التضاعف في عدد العمال المترتب على نهضة الصناعة اليونانية، أن اليونان — شأنها في ذلك شأن كثير من الدول في هذه الأيام — تعاني من مشكلة التزايد في عدد السكان، وهي مشكلة ملحَّة؛ بسبب ارتفاع المعدل لتكاثر السكان من عامٍ إلى عام.

ومن بين المؤسسات الصناعية الثلاثة آلاف العاملة في اليونان ٢٣٠ مؤسسة يعمل في كلٍّ منها أكثرُ من ١٠٠ مستخدم، و٤٥ يعمل في كلٍّ منها أكثر من ٥٠٠، وست مؤسسات يعمل في كل منها ما يتراوح بين ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠، و٨ مؤسسات يعمل في كلٍّ منها أكثر من ١٥٠٠.

أما المؤسسات الباقية فيقلُّ عدد الأيدي العاملة فيها عن ١٠٠.

والصناعة اليونانية من ناحيةٍ أخرى تدرُّ على البلاد، قدرًا غير يسير من العملات الأجنبية، ويتبين مبلغ أهمية هذه المعونة التي تؤدِّيها الصناعة للبلاد، إذا ما علمنا أن قيمة إنتاج الصناعات اليونانية الثلاث الرئيسية تزيد على ٢٥٠ مليون دولار.

وتدل النسب المئوية الواردة بعدُ لكل قيمة من قيم الإنتاج الصناعي في اليونان، على أهمية العمد الأساسية للصناعة اليونانية:

صناعة المنسوجات	٪٣٦,٧٠
صناعة الأغذية	٪١٣,٧٠
صناعة الكيميائيات	٪١٣,٦٠
صناعة الميكانيكيات	٪٨,٤٧
صناعة الجلود	٪٤,٦٧
صناعة الورق	٪٤,٢١
صناعة مواد البناء	٪٤,١٠
صناعة الخشب	٪٢,٩٠
صناعة التبغ	٪٣,٨١
صناعات أخرى	٪٧,٨٤

ومع ذلك فلا تزال أمام الصناعة اليونانية آفاقٌ رحيبة، وميادين فسيحة لمزيدٍ من التوسع، كما أن مقادير عظيمة من الخدمات الزراعية والمعادن الخام يجري تصديرها اليوم دون تصنيع.

وتعتمد بلاد اليونان أكبر اعتماد — بعد تصدير الدخان — على مواردها السياحية، ويبلغ إيرادها من السياحة ما يزيد على ٤٠ مليونًا من الدولارات، وقد لوحظ أن السائحين يقومون بزيارة مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط كلما زاروا اليونان.

وزيارات السائحين التقليدية لإنجلترا وفرنسا وإيطاليا ما تزال محتفظة بمستواها، غير أنه لوحظ في السنوات الأخيرة أن اليونان وأسبانيا والنمسا وشمال إفريقيا والبرتغال سجلت زيادة كبيرة في عدد السائحين الذين يزورونها.

أوليمبيا «إيروون» من المناطق الأثرية التي تجذب السائحين لليونان.

أما فيما يتعلق ببلاد اليونان فيسهل جدًّا معرفة أسباب إقبال السائحين عليها؛ إذ أن هبوط الأسعار الذي حدث في شهر أبريل سنة ١٩٥٣م، حتى وصل إلى نسبةٍ خطيرة جعل من بلاد اليونان أرخص بلد أوروبي بلا منازع.

ولقد قامت الحكومة بنفسها بإنشاء فنادق عصرية أنيقة، أشرف على تصميمها أعظم مهندسي المباني في اليونان، في معظم المناطق السياحية الهامة؛ أمثال: دلفي وأوليمبيا وكورنث وميسينا، وأبيدورس ونوبيون ورودس وماكينوس.

وفي كل مدينة منها يجد السائح غرفة بسريرين وحمام وشرفة خاصة مع ثلاث وجبات يوميًّا، ولا يكلفه ذلك أكثر من ستة دولارات ونصف (نحو ثلاثة جنيهات مصرية).

كما أنشأت الحكومة طرقًا واسعة مغطاة بالأسفلت، تربط أثينا بمعظم المناطق السياحية، ويباع البنزين بثمنٍ أرخص مما يباع به في أي بلدٍ أوروبي آخر.

وخدمات السكك الحديدية والأتوبيس منتشرة في جميع أنحاء اليونان، كما أن هناك رحلات تنظمها مصلحة السياحة وبعض وكالات السياحة.

ولا شك أن هبوط الأسعار وإنشاء الطرق الواسعة والمناظر الطبيعية، ليست هي الأسباب الوحيدة في رواج السوق السياحي ببلاد اليونان، فإن هذه البلاد بها عوامل تجذب السائحين إليها منذ ألفي عام.

إن مجد اليونان التليد ما زال معترفًا به حتى اليوم، ولا شك أن كل من يزور هذه البلاد يحسُّ بشعورٍ من الإلهام والإعجاب لهذه البلاد التي كانت مهدًا للحضارة والثقافة الغربية.

فكثيرٌ من المعابد والمسارح والملاعب وغيرها من المنشآت العامة التي بنيت في العصر الذهبي لبلاد اليونان؛ لا تزال تحتفظ بكيانها ورونقها، كما أن هناك مناظر طبيعية رائعة، كل هذا يحمل إلى الزائر صورة لما كانت عليه هذه الأماكن في تاريخ اليونان القديم.

كما أن مناخ هذه البلاد مشمس ودافئ من شهر مارس إلى آخر ديسمبر، رغم أن جو البلاد قاري حارٌّ في الداخل طوال شهور الصيف، ولكن شاطئ البحر لا يبعد كثيرًا عن أي مكان في داخل بلاد اليونان، وهناك مصايف متعددة وشواطئ للاستحمام.

ولهذه البلاد في حد ذاتها جمال فريد، علاوة على آثارها، فالمنظر الطبيعي العادي في اليونان، هو عبارة عن بحرٍ أزرق شديد الزرقة، وسماء زرقاء صافية تتوسطهما ألوان مختلفة، منها الرمادي والبني والأخضر، ومعظم المناطق في هذه البلاد جبلية تغطِّيها الصخور الرمادية، وفي الصيف يتحوَّل لون الأماكن التي تحرقها الشمس بنارها إلى لونٍ بني غامق، ولكنك تجد هنا وهناك بستانًا يتكون من الزيتون، أو مجموعة من أشجار السرو أو شجرة خضراء، تبعث في هذا المنظر الموحش لمسة من الحياة، والهواء في بلاد اليونان خفيف، والرؤية ممتازة.

إن سكان اليونان قوم كلهم مرح وود، وهم يؤمنون بالديمقراطية والفردية؛ ولذلك قلما تصادف خلق التذلل والاستعطاف الذي تشاهده في بعض البلاد البلقانية الأخرى.

وقد عشق كثيرون من الشعراء والأدباء والكتاب بلاد اليونان وتغنَّوا بجمالها، وإذا كنت في أثينا ورغبت في زيارة الأكروبول فأنت تمر في طريقك بدار البرلمان والكلية الأهلية والأكاديمية والجامعة، وكلها مشيدة جنبًا لجنب، ولا شيء فيها يثير الاهتمام غير النصب التذكاري، الذي أقامه اليونانيون للورد بيرون؛ الشاعر البريطاني الذي حارب في صفوفهم ضد الأتراك، وسقط قتيلًا في واقعة ميسولنجي، فاعترفوا بفضله وأقاموا له نصبًا تذكاريًّا رائعًا.

ولم يكن بيرون هو الشاعر الإنكليزي الوحيد الذي استهواه التراث الإغريقي الخالد، وأغراه بالانتصار للشعب اليوناني، بل إن زميله الشاعر الشاب روبرت بروك، انخرط هو الآخر في سلك الجيش اليوناني، واستشهد في الحرب العظمى.

ذلك أن اليونان في نظر الشاعر أو الفنان بلاد يكسوها جمال رائع، لا يكاد يشد رحاله حتى يدرك سر الإلهام في الفن، والقدرة على التعبير عن شتَّى معاني الجمال.

ومن السهل عليك أن تقابل في المناطق الهامة شخصًا يستطيع أن يتكلم الإنجليزية أو الفرنسية أو العربية، أما في الريف فلا تسمع غير اللغة اليونانية، وذلك باستثناء رجال البوليس السياحي الذين يشبهون رجال البوليس العادي، غير أن الواحد منهم يضع شريطًا أبيضَ على الكم الأيسر؛ للدلة على أنه يتحدث لغة أجنبية علاوة على اليونانية.

ويقول موظفو مصلحة السياحة الدينية: إن العائق الوحيد أمام ازدهار السياحة في بلادهم، هو نقص عدد الفنادق، فأثينا وحدها تحتاج إلى أربعة أو خمسة فنادق عصرية كبرى جديدة.

والفنادق الحكومية في الأماكن الهامة جديدة وأنيقة ولكنها صغيرة؛ ولذلك تأمل الحكومة أن تشجِّع رءوس الأموال الأجنبية على المساهمة في حل هذه المشكلة، وهي تقدِّم شروطًا مغرية للاستغلال.

وباليونان عدد من المدن المشهورة بمياهها المعدنية التي يقصدها المرضى للاستشفاء بمياهها، ومن أهم هذه المدن:

لوتراكي: وهي تقع على بعد ٨٥ كيلومترًا من أثينا، وتعتبر أهم مدن المياه المعدنية في اليونان، ويجري العلاج فيها بواسطة الحمامات وبشرب المياه، وقد أقامت الدولة منبعًا

مجانيًّا لهذه المياه في وسط المدينة، وهي شبيهة في مزاياها بمياه إفيان وفيتل المشهورة، وهي تفيد في علاج أمراض كثيرة.

أديبسوس: وهي تقع في الجزء الشمالي الشرقي من إحدى الجزر اليونانية، وسط مناظر طبيعية جميلة تتجلى في الجبال والبحر. والمياه المعدنية في هذه الجزيرة من أهم أنواع المياه المعدنية في اليونان، وخاصة في علاج الروماتيزم الحاد وغيره، وهناك بواخر وقوارب خاصة تصل إليها بانتظام من بيريه وشالسيس.

هيباتي: وتشتهر مياهها بعلاج الأمراض الجلدية وأمراض القلب. والوصول إليها سهل إذ تركب القطار من أثينا إلى ليانوكلادي (٥ ساعات)، ومن هناك بواسطة الأوتوبيس (١٢ كيلومترًا).

ميتانا: وهي تقع على شبه جزيرة تحمل نفس هذا الاسم، ومياهها تعالج أمراض الروماتيزم والأمراض الجلدية، وأمراض الجهاز التنفسي والأنيميا، ويتم الاتصال بها عن طريق بيريه بواسطة القوارب.

بلاتيستومون: ويوجد فيها نبعان: النبع البارد وتوصف مياهه للمرضى بالإمساك المزمن والسكر، والنبع الدافئ وتوصف مياهه لمرضى الروماتيزم والأمراض الجلدية وأمراض الجهاز التنفسي.

ولما كانت معظم الجهات المأهولة بالسكان في بلاد اليونان تقع قريبًا من البحر؛ لذلك كان السمك هو الطعام الأساسي للسكان، وهم يعتمدون على صيد «الجمبري» والحبار والرنجة والبربوني.

ومع هذا فإن صيد السمك ليس الحرفة الرئيسية للسكان؛ ذلك لأن البحار التي تحيط ببلاد اليونان قد قلَّت الأسماك فيها؛ بسبب استعمال المتفجرات في الصيد؛ مما تسبَّب عنه القضاء على بيض السمك وبذلك قلَّ عدده، كما أن مجموعات السمك الهائلة التي تهاجر سنويًّا من البحر الأسود إلى الساحل الأفريقي، وبالعكس تلازم شواطئ آسيا الصغرى حيث الخلجان ملائمة لطعامها.

والصيد في المياه الضيقة بين الجزر اليونانية وشاطئ تركيا تحفُّه الصعوبات؛ بسبب الخوف من الاعتداء على المياه التركية الإقليمية، وما يتبعه من مصادماتٍ مستمرة بين البحارة اليونانيين وقوارب خفر السواحل التركية.

في اليونان: نشأت الألعاب الأوليمبية

كانت اليونان هي البلد الذي بلغت فيه الرياضة البدنية أعلى درجات الازدهار والتقدُّم في العصور القديمة، فلا ريب أن بلدًا في تاريخ العالم لم يبلغ مستوى اليونان في التشجيع على إنماء الرياضة البدنية وممارستها.

وكانت عند اليونانيين طريقتان أساسيتان للتربية البدنية؛ إحداهما اتبعها أهل اسبرطة وكريت، وهي طريقة خشنة صارمة قوامها التدريب العسكري، وأخرى أقل صرامة وخشونة؛ إذ كان الغرض منها تنمية البدن في انسجامٍ وتناسق، وقد اتبعها أهل أثينا الذين كانوا يهتمُّون كثيرًا بجمال الأبدان وتناسق القوام.

وكان اليونانيون، ولا سيما الأثينيون، يعتقدون أن تقوية الأذهان والنفوس، يجب أن تقترن بتقوية الأبدان، ولكن ينبغي في الوقت نفسه أن تنموَ الأجسام نموًّا متناسقًا جميلًا.

وكانوا لا يحاولون التخصُّص في نوعٍ من أنواع الألعاب الرياضية، وإنما أرادوا أن يساعدوا الشبان على أن يمارسوا ألعابًا مفيدة، مثل: المصارعة والجري والقفز، وقذف الأسطوانات والكرة، والرقص بالأسلحة وسباق المركبات، والهوكي والملاكمة وغيرها من الألعاب النافعة.

وكان لكل مدينة يونانية ملعبها الخاص، وكانت الألعاب التي تقام فيه تقدم إلى الآلهة بعد تقديم الضحايا والقرابين، وفقًا للطقوس الدينية المتبعة في ذلك العهد.

وكانت الألعاب الأوليمبية هي أهم الاحتفالات بالرياضة البدنية في اليونان؛ إذ اعتبرها اليونانيون عيدًا قوميًّا لهم، فكانوا يتوقَّفون خلال إقامتها عن القتال، ويشترك فيها الأبطال الرياضيون في مختلف أنحاء البلاد، وينال الفائز الأول منهم جائزة هي غصن من أغصان الزيتون، ولا يفوز بهذه الجائزة إلا أول المتسابقين.

«الأفيزون» الجندي اليوناني الذي يشتهر بملابسه القومية.

وكانت المدينة التي ينتسب إليها البطل الفائز تحتفل به عند عودته إليها احتفالًا رائعًا، وكان أهلُها لا يتردَّدُون عن إزالة جانب من أسوارها؛ ليقيموا له أقواس النصر عند دخوله إليها، إذا استلزم الأمر ذلك.

وكانت اليونان تحتفل بالألعاب الأوليمبية كل أربع سنوات، وقد أقيم أول احتفال بها سنة ٧٧٦ قبل الميلاد، فاليونان تعتبر إذًا مهد هذه الألعاب، وأول بلد مارسها في العالم منذ فجر التاريخ، وقد دأبت على ممارستها حتى أول ظهور المسيحية، ولكن الأنواع الأخرى من الرياضة البدنية التي كان يمارسها اليونانيون استمرت حتى القرن الثاني بعد الميلاد.

وقد أنشأت اليونان الملاعب (الاستاد) في عهد هدريان، ولم يكن الرياضيون في تلك العصور القديمة يتمتَّعون بما يتمتَّع به أقرانهم اليوم من تسهيلات ومزايا؛ إذ كانوا مثلًا

يتسابقون وهم حفاة الأقدام، وكانت الملاعب تزدان بتماثيل تسمى هيرمس، وهي ذات وجهين؛ أحدهما يصور شابًّا والآخر كهلًا، وكانت ترمز إلى أن المرء إذا مارس الألعاب الرياضية في شبابه لا يفقد حيويته في شيخوخته.

ولقد واصل اليونانيون ممارسة الألعاب البدنية حتى العصر البيزنطي، ولا سيما سباق الخيل والمركبات، واستمر تعلقهم بهذه الألعاب خلال القرون الأربعة التي استغرقها الاحتلال العثماني، وكانت الجماعات المعروفة باسم «كليفتس» و«باليكاتس» التي اعتصمت بالجبال لمقاومة الاحتلال، تمارس الرماية والقفز والجري وإلقاء الأحجار وغيرها.

وبعد أن تم إنشاء الدولة اليونانية ببضع سنوات، استأنف الشعب اليوناني ممارسة الألعاب الرياضية، ولكن نظرًا لأن وسائله كانت في ذلك الحين محدودة، اقتصر الأمر في بدايته على ألعابٍ بسيطة في المدارس بمقتضى مرسوم سنة ١٨٣٤م، وأنشئ في مدينة «نوبلي» أول عاصمة لليونان الحديثة، الملعب الأول لهذه الرياضة ثم أنشئت ملاعب أخرى في أثينا بعد انتقال العاصمة إليها، وقد أقيم هناك أول احتفال رياضي في عام ١٨٥٩م، ولكن النهضة الرياضية الحقة لم تبدأ إلا في سنة ١٨٧٠م، ثم أخذت تزدهر منذ سنة ١٨٩١م؛ إذ أنشئت عدة أندية رياضية في أثينا وغيرها من المدن اليونانية.

وبعد ذلك نمت الألعاب الرياضية على اختلاف أنواعها، ولما أخذ البارون بيير دي كوبرتان في نشر فكرة إحياء الألعاب الأوليمبية في عام ١٨٩٣م، قوبلت فكرته بحماسٍ شديد في اليونان بوجهٍ خاص، وتألَّفت أول لجنة أوليمبية يونانية، وتَكفَّل مواطن يوناني كان يعيش في الإسكندرية وهو جورج أفيروف بنفقات إنشاء إستاد باناثنياك الحالي على أرض الملعب القديم، وهو مبنى من الرخام ويحتوي على ٦٨ ألف مقعد.

وفي سنة ١٨٩٦م أقيمت أولى الألعاب الأوليمبية الحديثة في أثينا، كما أقيمت الألعاب الدولية سنة ١٩٠٦م، وقد سمَّاها اليونانيون أوليمبية أيضًا، ومنذ ذلك الحين تقدَّمت الألعاب الرياضية في اليونان تقدمًا سريعًا.

وقد اشتركت اليونان في جميع الألعاب الأوليمبية، كما اشتركت في المسابقات الرياضية التي أقيمت في مختلف العواصم البلقانية، وفازت في جميع هذه المباريات عدا مرة واحدة، جاء ترتيبها فيها الثانية.

اليونان وقبرص

كانت قبرص هي البلد الأوروبي الوحيد الذي رزح زمنًا تحت نير الحكم الأجنبي، وسكان هذه الجزيرة — ونسبة اليونانيين منهم ٨٠٪ — قد لقوا في جهادهم للتحرر ألوان العنت والاضطهاد، لا لذنبٍ جنوه إلا أنهم اجترءوا على المطالبة بحق تقرير مصيرهم السياسي، طيلة السنوات الثمانين الماضية.

ومنذ أن احتلت الجيوش البريطانية أرض الجزيرة عام ١٨٧٨م، والساسة البريطانيون يعترفون بحقوق قبرص، بل كانوا يؤازرونها.

غير أن القبرصيين لما راحوا يستنجزون الوعود قوبلوا بالرفض، فأفضَتْ هذه التصرفات إلى تلك الأحداث المفجعة، التي كانت تجري في هذه الجزيرة حتى وقتٍ قريب.

وقد ظلت الحكومة اليونانية سنوات عديدة تتحاشى أي تعقيد للنزاع الناشب بين البريطانيين وبين القبرصيين، غير أنها قامت فيما بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٤م ببذل جهود قصد الوصول إلى تسوية ودية؛ وذلك بمفاتحة الحكومة البريطانية مباشرة في موضوع هذه المشكلة. فطلبت الحكومة اليونانية إلى الحكومة البريطانية أن تكاشفها بنياتها حيال مستقبل الجزيرة، وسرعان ما جاءها الرد، معجلًا في وروده باردًا في لهجته، بالرفض البات لإجراء أي حديث في شأن مستقبل قبرص، مؤكدًا أنه لا يوجد شيء اسمه مشكلة قبرصية!

إذ ذاك لم يسع الحكومة اليونانية إلا أن تُقرِّر رفع الأمر إلى الأمم المتحدة، غير أن الحكومة اليونانية قبل لجوئها إلى هذه المنظمة الدولية، وفي غضون اتصالاتها المباشرة مع الجهات المعنية بهذا الموضوع، كانت قد أعربت عن موافقتها على قبول أي حل من الحلول، يصون مصالح الفريقين المتنازعين.

كذلك قدمت الحكومة اليونانية ضمانات دولية لصون حقوق الأقلية التركية في الجزيرة، وللمحافظة على المصالح البريطانية والمصالح التركية العادلة، كما قبلت هذه

الحكومة، وقبل معها القادة القبرصيون حلًّا مؤقتًا للمشكلة؛ ابتغاء العودة بالجزيرة إلى حالتها الطبيعية.

ولكن رغم هذا المسلك المتزن من جانب الحكومة اليونانية، فقد ظلت المشكلة زمنًا طويلًا تتفاقم وتزداد ابتعادًا عن سبيل الحل السوي؛ لأن السياسة التي كانت تنتهجها الحكومة البريطانية في قبرص إزاء المشكلة القبرصية؛ خلقت ارتباكات لم يكن لها وجود، بل زادت المسألة تعقيدًا فوق تعقيد.

ومن الأمثلة على ذلك: دستور رادكليف؛ فقد جاء هذا الدستور مشفوعًا بتصريحٍ من الحكومة البريطانية فحواه أنه إذا قيض لقبرص أن تمارس أصلًا حق تقرير المصير، فإن للأقلية التركية، وتبلغ نسبتها في الجزيرة ١٨٪ من سكانها، أن تصوِّت على حدة في الانتخابات، ويكون لها الحق في أن تختار التقسيم إذا شاءت ذلك.

غير أن الجمعية العمومية للأمم المتحدة خذلت دستور رادكليف، ووصمته بأنه دستور منافٍ للحرية والديمقراطية.

ولكن الحكومة البريطانية بدلًا من أن تعتبر بهذا الرفض، وتتخذ منه درسًا، تقدمت بمشروعٍ آخر كان أكثر مخالفة ومجافاة للديموقراطية؛ وهو مشروع «التقسيم» فهو رغم ما أُدخله عليه تصريح ماكميلان في ١٥ أغسطس عام ١٩٥٨م، كان يدلُّ على روح استعمارية أصيلة.

ولكن رغم كل هذه العقبات والأحداث، ما لبث العقل أن سيطر على الموقف، فحل التفكير الهادئ السليم محل المطامع والأهواء، ودارَتْ من وراء الستار مفاوضات غير رسمية لوضع نهاية لذلك النزاع الدموي الطويل، وفي يوم ٦ فبراير عام ١٩٥٩م بدأت في زيورخ مباحثات بين كلٍّ من رئيس وزراء اليونان، اشترك فيها طائفة من الخبراء، ووزيرَيْ خارجية الدولتين.

وفي يوم ١٠ فبراير أعلن في زيورخ أنه قد تم الاتفاق بين أفانجلوس أفيروف وزير خارجية اليونان، وبين فطين زورلو وزير خارجية تركيا، على تذليل الصعاب التي كانت تعترض الوصول إلى تسوية سلمية لمشكلة قبرص.

وفي يوم ١١ فبراير ١٩٥٩م صدر بيان مشترك، جاء فيه أن مشكلة قبرص قد بحثت في النهاية بروح من التفاهم المتبادل، وأن كرامنليس رئيس وزراء اليونان، وعدنان مندريس رئيس وزراء تركيا، قد توصَّلا إلى اتفاقٍ يجعل من قبرص جمهورية مستقلة.

وعُقد بعد ذلك في لندن مؤتمر ضم ممثلين لليونان وتركيا وبريطانيا وممثلي الشعب القبرصي.

وفي ١٩ فبراير ١٩٥٩م وقعت وثائق التصفية النهائية لمشكلة قبرص، وتتضمَّن هذه الوثائق اتفاق زيورخ، ومعاهدة تحالف بين كل من قبرص وتركيا واليونان، ومعاهدة ضمان استقلال قبرص بين كل من بريطانيا وتركيا واليونان، وألحقت بهذه الوثائق جميعًا التحفظات البريطانية.

وأهم ما جاء في اتفاق زيورخ أن يكون رئيس الجمهورية من الجالية اليونانية، ونائب الرئيس من الجالية التركية، ويتألَّف مجلس الوزراء من بين ٧ يونانيين و٣ أتراك، ويختار الرئيسُ اليونانيين ويختار نائبُه الأتراك، وتصدر قرارات المجلس بالأغلبية المطلقة.

ونص الاتفاق كذلك على قيام مجلس تشريعي ينتخب كل خمس سنوات بالاقتراع العام، ٧٠٪ من أعضائه يونانيون و٣٠٪ أتراكًا، وتصدر قراراته بالأغلبية المطلقة، أما تعديل الدستور فتشترط فيه أغلبية الثلثين من نواب كل جالية.

ويتألَّف جيش الجمهورية من ٢٠٠٠ جندي، ٧٠٪ منهم يونانيون و٣٠٪ أتراك، وتتألَّف قوة البوليس من ٢٠٠٠ بنسبة ٧٠٪ و٣٠٪ على التوالي.

أما معاهدة التحالف بين كلٍّ من قبرص وتركيا واليونان، فنصَّت على إنشاء قيادة ثلاثية تتبعها قوة من ١٦٠٠ ضابط وجندي، منهم ٩٥٠ يونانيًّا و٦٥٠ تركيًّا، ويتولى قيادتها بالتناوب ضابط يوناني وضابط تركي، ترشحه حكومته ويوافق عليه الرئيس أو نائب الرئيس حسب جنسيته، وهذا القائد هو الذي يتولى تدريب القوات القبرصية.

أما التحفظات البريطانية فتقضي بالاحتفاظ بسيادة بريطانيا على المنطقتين الساحليتين اللتين تضمان القواعد البريطانية، وبأن تضمن لها تركيا واليونان وقبرص جميع الحقوق التي تمكنها من استخدام قواعدها في الجزيرة على الوجه الأكمل.

هذا ملخص عاجل لتاريخ المشكلة القبرصية وتطوراتها، منذ نشأتها إلى نهايتها بالاتفاق بين الدول الثلاث على ذلك الحل السعيد الذي أرضى جميع الأطراف، حتى وصف في جميع أنحاء العالم بأنه معجزة سياسية لم يسبق لها مثيل، ولم يكن ذلك للسرعة التي تمَّت بها التسوية، رغم الصعاب التي كانت تتحطم على صخورها كل المحاولات السابقة، بل للسهولة المدهشة التي اكتشف بها هذا الحل الموفق، على كثرة الحلول والمقترحات والعروض التي عولجت بها المشكلة في مؤتمرات ومفاوضات ومحادثات وموائد مستديرة لا عد لها ولا حصر.

وقد كان بطل جهاد قبرص الحقيقي ورمزها في سبيل تحقيق الأماني القومية؛ هو الأسقف مكاريوس الذي تحمل من الاستعمار آلام النفي والتشريد، حتى لقد أُلقِيَ به فترة

من الزمن في جزيرة سيشل، وهي نفس الجزيرة التي نُفِيَ إليها الزعيم المصري الخالد سعد زغلول في مطلع الحركة الوطنية المصرية، في الأعوام العشرينية من هذا القرن.

وقد كان من حظ مؤلف هذا الكتاب أن كان من أول الصحفيين في العالم الذين قابلوا الأسقف مكاريوس في قبرص، وكان ذلك في منتصف عام ١٩٥٥م، وقد كتب المؤلف يومئذٍ عن رحلته إلى قبرص الجميلة ما يلي:

> عدت منذ أيام من قبرص، وأنا أعجب من الهدوء الذي يسود الجزيرة، ومن روح المسالمة التي يُبديها أهلها، رغم القنابل التي تنفجر هناك كل يوم ضد جيش الاحتلال البريطاني.
>
> ولكنك مع هذا تجد عبارة «إنوسيس» ENOSIS أي الوحدة، وقد كتبت بالحروف الحمراء على كثيرٍ من الجدران، وخاصة في الأماكن النائية، كما تسمع من الكثيرين صدى الرغبة التي تتردد في نفوس القبرصيين الذين ينتمون لأصلٍ يوناني ويتحدَّثون اللغة اليونانية في الانضمام إلى اليونان، ولكنك تسمع أيضًا صوت المعارضة الشديدة لهذا المطلب من الأقلية القبرصية التي تنتمي لأصل تركي.
>
> وتفتح الصحف البريطانية التي تصدر في قبرص، فتقرأ أنباء بعض المحاكمات والأحكام التي صدرت ضد الشبان المتحمسين الذين يثيرون القلاقل في الجزيرة، ومن بينها قصة ذلك الشاب المسكين الذي تسلل إلى أحد المعسكرات البريطانية، وبدأ يقطع الأسلاك الكهربائية، فصعقه التيار العالي وحوَّله إلى قطعةٍ من الفحم الأسود!
>
> وفيما عدا ذلك، وفيما عدا بعض حوادث الإضراب في المدارس، يسود الهدوء جزيرة قبرص من أقصاها إلى أقصاها، ويسير الجنود الإنجليز في الجزيرة كما يسير المدنيون في أمان، ويتعاملون مع القبرصيين في لينٍ ويسر.[١]

[١] كتب هذا المقال في منتصف عام ١٩٥٥م ووصف الحالة التي كانت سائدة عامئذٍ بالهدوء، ولكن الحوادث تطوَّرت بعد ذلك وساءت العلاقات بين القبرصيين المجاهدين وبين المحتلين، ونزل الفدائيون إلى الميدان وتعدَّدت حوادث الاغتيالات، كما وقعت عدة حوادث بين القبرصيين الموالين لليونان والقبرصيين الموالين لتركيا.

وينتظر القبرصيون بفارغ الصبر موسم السياحة الذي يبدأ في يوليو، وهم يعتمدون عليه في حياتهم الاقتصادية إلى حدٍّ كبير. وكان كل سؤال يُلقى علينا في أي مكان نحل فيه: هل يحضر إلينا كثيرون من سكان مصر في هذا الصيف؟ وهل سمحت لهم الحكومة بمبالغ كبيرة؟ ومتى يبدأ حضورهم إلى الجزيرة؟

إن السائحين المصريين من أحسن عملاء جزيرة قبرص، ويحبهم القبرصيون أكثر من غيرهم؛ وذلك لأنه لا يكاد يوجد قبرصي ليس له أقارب في مصر، ولا يكاد يوجد قبرصي من المشتغلين بصناعة الفنادق أو المشارب، لم يشتغل فترة من الزمن في مصر، إن كثيرين من القبرصيين الأثرياء، وخاصة أصحاب الفنادق، كونوا ثرواتهم في مصر؛ حيث اشتغلوا بالتجارة أو عملوا (جرسونات) في الفنادق أو المشارب الكبيرة!

كنت لا أكاد أحل مع أصدقائي في مدينةٍ أو قرية قبرصية، مهما كانت نائية حتى نرى من يتقدَّم إلينا من السكان، وهو يقول: أهلًا وسهلًا! من مصر!

ثم يسرع في الحال إلى سرد علاقاته وصِلاته بمصر، وكيف ذهب إليها، وكيف عاد منها، ومن ترك هناك، ولا ينتهي من حديثه إلا بعد أن يؤكِّد أنه لا بد أن يعود يومًا ما إلى مصر؛ «لأن مَنْ شرب من ماء النيل مرة لا بد أن يعود إليه».

وفي المدينة الجبلية المشهورة براتراس، وعلى عتبة باب فندق «فورست بارا» رحب بنا بالعربية مدير الفندق «كوستى»، وجلسنا حوله في بهو الفندق نستمع إلى تاريخه العجيب في مصر التي قضها فيها أكثر من ٤٠ عامًا.

ذكر لنا أنه عمل في بادئ الأمر مع الخديو عباس الثاني، واشتهر باسم «كوستى بتاع الخديو»، ثم عمل مع السكك الحديدية المصرية، وانتهى به المطاف إلى نادي محمد علي؛ حيث أصبح شخصية مشهورة، يعرفها جميع «الباشوات» كما لا يزال يسميهم هو!

وذكر كوستى أن جميع أعضاء نادي محمد علي كانوا يعتبرونه والدًا لهم؛ وذلك لأنه شهد شبابهم وتدرَّج معهم، حتى أصبح ملمًّا بعادات كل عضو منهم، عارفًا بما يحب ويكره من أصناف الطعام والمشروبات.

قال لي كوستى: إن لطفي السيد كان العضو الوحيد الذي يقول له إذا خاطبه: يا ابني!

وقال: إنه كان يعرف بوصول أحمد عبد الغفار إلى النادي، بمجرد وقوف سيارته أمام الباب الخارجي، فإن صوته كان يدوي في داخل النادي إذا تكلم في الشارع!

وقال لي: إن أحمد عبد الغفار كان يقول له أمام الأعضاء كلهم: «إن كوستى يسافر كل سنة إلى أوروبا، ونحن هنا لا يمكن للواحد منا أن يسافر إلى الإسكندرية!»

وقال كوستى في شيءٍ من الأسف: لقد كان أحمد عبد الغفار يحسدني على السفر كل عام إلى قبرص! وها أنا ذا قد استقرَّ بي المقام في قبرص، وإلى الأبد!

وقبرص جزيرة منيعة في البحر الأبيض، تشرف على البحر من فوق ربوةٍ عالية، تصل إلى ارتفاع ألفي متر فوق سطح البحر في بعض الجهات، ومصر تقع جنوب قبرص على مسافة ٣٢٠ كيلومترًا، كما تقع سوريا إلى شرق قبرص ولا تزيد المسافة بينهما على ٨٠ كيلومترًا، كما تقع تركيا في شمال قبرص، والمسافة بينهما لا تزيد على ٥٥ كيلومترًا.

وقد أقام الاستعمار البريطاني في قبرص معسكراتٍ لجنود الجيش، جعلها أشبه بالمدن الصغيرة، كما اختار منطقة «إبيسكوبي» على الجبل مقرًّا لرئاسة القوات الجوية في الشرق الأوسط، كما أنشأ مطارًا كبيرًا على مقربةٍ من ليماسول، وجعل من قيادة قبرص الجوية أكبر قيادة جوية بريطانية عبر البحار، وعقد لها السيطرة على جميع القوات البريطانية الأخرى في الشرقين الأدنى والأوسط، وأقام الاستعمار كذلك فوق قمة جبل «ترودس» على ارتفاع ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر، أعلى محطة لاسلكية في الشرق الأوسط، ووضع آلات «الرادار» كعينٍ ساهرة، تفرض رقابة على جميع الطائرات التي تتحرك في هذه المنطقة.

هذه هي القلعة المنيعة الجبارة التي تحركت منها الطائرات والأساطيل والقوات في أواخر عام ١٩٥٦م؛ للاعتداء على استقلال مصر، وتقدمت من بورسعيد المدينة الباسلة؛ حيث لقيت شر هزيمة وخزي وعار، لقيتها الجيوش المعتدية في أي مكان في العالم، وما لبثت بعد ذلك أن عادت من حيث أتت؛ لتحدث العالم عن معنى الهزيمة. واعتذر قائد الحملة الفاشلة على مصر فيما بعد بأن «قبرص» لا تصلح لأن تكون قاعدة لقوات الاستعمار، وأن عدم صلاحيتها هو السبب الرئيس في فشله!

وبعد، فإن جزيرة قبرص من أجمل البقاع التي زرتها وقد ذكرتني جبالها بجبال لبنان وجبال تشيكوسلوفاكيا، وإن كانت الغابات فيها أقل كثافة من الغابات في تشيكوسلوفاكيا، وهي لا تزال تدعى إلى اليوم جزيرة إفروديت، إذ تروي الأساطير أن فينوس أو «إفروديت» إلهة الحب والجمال ظهرت على شواطئ الجزيرة الغربية أمام «باقوس»، وقد برزت من زبد البحر.

وقد عرفت هذه الحسناء باسم إفروديت القبرصية؛ تمييزًا لها عن إفروديت اليونانية.

وكانت إفروديت عند القبرصيين رمزًا لكل شيء جميل، وما زالت كذلك! وقد بقي معبدها الجميل قائمًا بالجزيرة إلى نهاية القرن الرابع للميلاد.

إن قبرص هي المصيف الطبيعي لكل عربي لا تتسع موارده للسفر إلى أوروبا فهي قريبة المنال، والإقامة فيها ميسورة والعربية فيها متداولة!

ولا شك أن أبوابها ستفتح لأبناء الجمهورية العربية المتحدة يوم تستقر أحوالها نهائيًّا بعد أن تحقَّقت أمانيها.

أما عن مقابلته للأسقف مكاريوس، فقد كتب المؤلف (في منتصف عام ١٩٥٥م) ما يلي:

قابلته في الصباح المبكر، ووجدته جالسًا وراء مكتبه في انتظاري، وكان أول سؤال ألقيته عليه بعد أن جلست، هو هذا السؤال الذي كان يحيرني منذ مدة طويلة، قلت له: أنت رجل من رجال الدين، فكيف قدر لك أن تصبح الزعيم السياسي لهذه الجزيرة، وأن تقود هذه الحركة الثورية؟

وابتسم الرجل وقال في هدوء: إن مركز رئيس الأساقفة في قبرص يختلف عن مركز غيره من الأساقفة؛ وذلك لأنه يُنتخب بواسطة الأهالي؛ ليكون رئيسًا دينيًّا لهم، ولكنه في نفس الوقت رئيسهم السياسي بحكم هذا الانتخاب، ففي الدول الأخرى لا ينتخب الناس رؤساءهم الدينيين، وإنما يعين رؤساء الأديان تعيينًا بواسطة غيرهم، وما دام أهالي قبرص هم الذين ينتخبون رئيسهم الديني، فمن حقه أن يتكلم باسمهم!

وقلت له: ولكن مسألة قبرص ليست مسألة عادية …

فاستوقفني بهدوء وهو يقول: إن مسألة قبرص ليست مشكلة سياسية فحسب، إنها مسألة تتعلق بالعدالة الدولية والأخلاق، وأنا كرجل دين في المقام الأول يهمني أن تسود العدالة.

وسألته: هل أنت تسعى لاستقلال قبرص حتى تتخلص من حكم بريطانيا، أم أنك تسعى لاتحاد قبرص مع اليونان؟

فأجاب رجل الدين بكل صراحة: إنني شخصيًّا أؤيد اتحاد قبرص مع اليونان، ولكني لا أطالب اليوم بأكثر من حق تقرير المصير لأهالي قبرص، حتى يبتوا في أمر مستقبلهم بنفسهم، فإذا تقدموا للاستفتاء الذي نطالب به، كان لهم أن يعطوا أصواتهم في جانب الاتحاد مع اليونان أو الاستقلال التام أو أي شيء آخر.

قلت: ولنفرض أنكم نلتم هذا الحق وانفصلتم عن حكم التاج البريطاني، فهل توافق على أن تمنح قبرص إنجلترا بعد ذلك حق إنشاء القواعد الحربية التي تطالب بها؟

وتخلص الرجل من هذا السؤال المحرج فقال: إن هذه مسألة سوف تبت فيها الحكومة اليونانية إذا تم الاتحاد معها فيما بعد!

ولكني لم أتركه يفلت من الإجابة فقلت له: لقد سبق لي أن تحدثت في هذا الموضوع، في الصيف الماضي، مع الماريشال باباجوس رئيس وزراء اليونان، وفهمت منه أن الحكومة اليونانية لا تمانع في منح بريطانيا قواعد حربية بجزيرة قبرص، حتى بعد اتحادها مع اليونان، فما رأيك في هذا؟

وقال الأسقف: لا شك أن من الممكن استعمال قبرص في مثل هذه الأغراض، ما دامت اليونان عضوًا في حلف الأطلنطي.

وسألت الأسقف: هل لديكم شكاوى محددة من الحكم البريطاني؟

فأجاب الأسقف وهو يبتسم: لدينا شكاوى عديدة وفي مقدمتها أننا بلد فقدَ حريته.

ولكن الأسقف كان يعرف أنني أريد أن أسمع شيئًا غير هذا، فبدأ يتكلم وكان أهم ما ذكره:

- إن بريطانيا تتدخل في التعليم حتى تصبغه بالصبغة البريطانية، وتؤثِّر في شباب قبرص لكي ينسوا صلتهم باليونان.

مكاريوس بطل جهاد قبرص: صورة خاصة وقعها بخط يده وأهداها للمؤلف.

- إن السلطات البريطانية لا تسمح بتعليق صور أبطال اليونان في المدارس.
- إن السلطات البريطانية لا تسمح بعزف النشيد الوطني اليوناني في قبرص.
- إن السلطات البريطانية تستغل قبرص استغلالًا اقتصاديًّا، فقد ظلت حتى سنة ١٩١٤م تجمع من السكان ضريبة؛ بحجة أنها إيجار الجزيرة الذي يجب أن يدفع لتركيا، وبعد ذلك ضمَّت الجزيرة لبريطانيا، ومع ذلك استمر تحصيل هذه الضريبة! كما أن فائض إيراد الجزيرة يرسل لبريطانيا، حيث يستغل بفائدة قدرها ١,٥ في المائة فقط، وإذا احتاجت

قبرص بعد ذلك إلى قروضٍ قدمتها إليها بريطانيا بفائدة قدرها ٤ في المائة!

وكان أطرف ما قصه عَلَيَّ الأسقف من أسباب غضبه على بريطانيا أنه في حفلات نهاية العام الدراسي أجبر الإنجليز تلاميذ المدارس وتلميذاتها على تقديم رقصات أسكتلندية في برنامج الاحتفال!

وتساءل الأسقف: «لماذا لا يسمح للتلاميذ والتلميذات بتقديم رقصات يونانية؟!»

وقلت للأسقف: يقول الإنجليز: إن هذه الجزيرة لم تخضع قط لحكم اليونان، فبأي حق تطالبون بضمها لليونان؟

وأجاب: إن الإنجليز ينسون التاريخ، والمسألة ليست مسألة لمن تتبع الجزيرة، وإنما هي منح حق تقرير المصير لسكانها.

فقلت له: والأقلية التركية؟

قال: ليس من حق الأقلية أن تتحكم في الأكثرية، ولكن من واجب الأقلية أن تحرص على حقوقها.

واختتم البطريرك حديثه قائلًا: «أرجو أن تحمل إلى الشعب المصري الباسل تحياتي وحبي وتقديري، ذلك الشعب الذي ضرب لنا أروع الأمثلة بجهاده في سبيل الاستقلال، وها هو يسير اليوم في طريق التقدم، حتى لقد احتل مركزًا من مراكز القيادة في الميدان العالمي.»

العلاقات بين العرب واليونان

العلاقات الودية بين الجمهورية العربية المتحدة وبين اليونان، هي علاقات تقليدية تقوم منذ أجيال على أسسٍ قوية راسخة من المبادلات التجارية والعلاقات الثقافية.

وإنه لمن الحقائق الثابتة أن كلًّا من مصر واليونان، كانت مهدًا لأعرق الحضارات في العالم، ومصدرًا للمعرفة والثقافة الرفيعة، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا ومعظم أقطار الدنيا غارقة في ظلمات الجهل والتأخُّر.

ولا ريب أن موقع البلدين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، واقتراب أحدهما من الآخر، وتشابه شعبيهما في كثيرٍ من النواحي الأخلاقية والعادات الشرقية، قد عاون على توثيق أواصر الصداقة وتعزيز العلاقات التجارية بينهما.

ولقد تجلت هذه الصداقة الوثيقة في مناسباتٍ دولية كثيرة، فكانت مصر سباقة على الدوام إلى مساندة اليونان في دفاعها عن قضية قبرص في الأمم المتحدة، كما كانت اليونان في طليعة الدول المعارضة لتقسيم فلسطين، وإلى نبذ الاعتراف بإسرائيل، وقد وقفت إلى جانب مصر خلال أزمة السويس، وأثناء الاعتداء الثلاثي على الأراضي المصرية.

وفي الإقليم المصري جالية يونانية كبيرة، هي أكبر الجاليات الأجنبية، وأكثرها اختلاطًا بشعب مصر، وتعاونًا معه منذ سنوات طويلة، وهي تشاركنا المشاعر وتساهم بقدرٍ ملموس في نشاطنا الاقتصادي.

والصداقة اليونانية العربية عاطفة متأصِّلة في نفوس اليونانيين منذ أجيالٍ عديدة، فقد شاءت الأقدار أن تجعل من مياه البحر الأبيض المتوسط حدودًا مشتركةً للأمتين اليونانية والعربية اللتين لم يعكر صفوَ الصداقة والثقةَ بينهما أيُّ سوء، منذ أن ظفرت اليونان باستقلالها السياسي.

والتعاون بين اليونان وبين الإقليمين الشمالي والجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة وباقي الدول العربية، قد أصبح عنصرًا من العناصر الأساسية في السياسة اليونانية الخارجية.

ففي سنة ١٩٤٧م كانت اليونان هي الدولة الوحيدة بين الدول الأوروبية الأعضاء في الأمم المتحدة، التي أعلنت في المحافل الدولية معارضتها القوية لتقسيم فلسطين. وفي سنة ١٩٥٤م لما أخذت بعض الدول تعد العدة لعقد ميثاق بغداد، جاهرت اليونان أيضًا بتنديدها بهذا الميثاق، الذي دعت إليه سياسةٌ هدفها إثارة الشقاق بين العرب.

ومنذ ذلك الحين لم تدع اليونان فرصة في الأمم المتحدة أو غيرها، إلا وانتهزتها لتأييد مطالب العرب العادلة، وكان من بواعث غبطة اليونان وفخرها أنها بذلت كل ما في وسعها لمساندة مصر إبان أزمة قناة السويس الحادة، كما رحب الشعب اليوناني بعد ذلك ترحيبًا حارًّا بإنشاء الجمهورية العربية المتحدة، التي كان إنشاؤها نصرًا مبينًا لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، ذلك المبدأ الذي لا ينسى اليونانيون أنه طبق في الميدان الدولي لأول مرة، حينما قاموا بثورتهم في عام ١٨٢١م، وظفروا بالاستقلال والحرية.

ولقد برهنت الصداقة اليونانية العربية على قوتها أمام تطورات الأحداث، وهي كفيلة بحفظ كيانها ودعمه في المرحلة الحاسمة من مراحل النهضة العربية الراهنة، تلك النهضة التي تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، وتشبه حركة توحيد إيطاليا وألمانيا التي تمت منذ قرنٍ مضى.

وإنه لمن الحقائق الثابتة أن الشعبين العربي واليوناني مرتبطان بأواصر الصداقة التقليدية القديمة، وهي أواصر لم تتحقق بفضل المصالح المشتركة والتقدير المتبادل فحسب، ولكنها تولَّدت أيضًا من شعورهما بالاعتزاز والفخر؛ لأن كلًّا من الشعبين ورث حضارة متناهية في الرقي والتقدُّم، وحرص كل منهما على أن يكون أهلًا لها عاملًا على إحيائها.

ومما يستحقُّ الذكر في هذا المقام أن التبادل التِّجاري بين الجمهورية العربية المتحدة واليونان، قد زاد بنسبةٍ كبيرة ولا سيما بعد أحداث أزمة السويس.

وتجلَّتْ رغبة الحكومة اليونانية في تنمية العلاقات الاقتصادية والتجارية بين اليونان والعالم العربي، بعقد الاتفاق الموقع بين الحكومتين في الخامس عشر من شهر أغسطس ١٩٥٨م.

وبفضل هذا الاتفاق أمكن تسوية ما كان معلقًا من مسائل اقتصادية مختلفة بين البلدين.

وقد تعهَّدت الدولتان بمواصلة العمل بإخلاص وتفاهم متبادل؛ من أجل ازدياد التجارة بين البلدين نموًّا ونشاطًا؛ لأن جميع الأسباب، من أدبية ومادية وجغرافية، تدعو إلى توفير عوامل الدوام لهذه العلاقات وازدهارها.

والواقع أن العلاقات الاقتصادية التي تربط الجمهورية العربية المتحدة ودولة اليونان الصديقة هي روابط وثيقة تمتد جذورها إلى الماضي البعيد، كما تدعمها في الوقت الحاضر جالية يونانية كبيرة تقيم في مصر، وتشارك أهلها المشاعر، وتساهم بقدرٍ ملموس في نشاطنا الاقتصادي.

وتنظم العلاقات الاقتصادية بين الإقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة واليونان اتفاقية للتجارة ترجع إلى عام ١٩٥٣م، وقد اتفق الطرفان على أن يطبق كل منهما على الآخر، على أساس المعاملة بالمثل، شرط الدولة الأكثر رعاية فيما يتعلق بالتعريفات الجمركية والضرائب غير المباشرة على السلع الاستهلاكية ورسوم أرصفة الموانئ، كما أبرم الطرفان أيضًا اتفاقية للدفع تقضي بأن تسوَّى المدفوعات الناشئة عن العمليات التجارية بينهما على أساس الجنيه المصري.

ولقد بلغ متوسط قيمة واردات الإقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة من اليونان في الثلاث سنوات الأخيرة[١] ٥,٢ ملايين جنيه مصري، كما بلغ متوسط قيمة صادراته إلى اليونان ٣,٥ ملايين جنيه مصري في نفس الفترة، وقد تم الاتفاق بين الإقليم الجنوبي واليونان منذ وقتٍ قريب على بعض الأسس التي من شأنها أن تكفل ازدهار العلاقات الاقتصادية بينهما ونموها بما يحقِّق صالحهما المشترك.

وفيما يختص بالإقليم الشمالي فقد زادت صادراته إلى اليونان، مما بلغت قيمته ٣,٧ ملايين ليرة عام ١٩٥٦م إلى ما بلغت قيمته ٥,٣ ملايين ليرة عام ١٩٥٧م، وفي الوقت نفسه زادت قيمة الصادرات اليونانية إلى الإقليم الشمالي مما بلغت قيمته ٨٥٣ ألف ليرة عام ١٩٥٦م إلى ما بلغت قيمته حوالي مليون ليرة سورية عام ١٩٥٧م.

ويدخل في التبادل التجاري بين اليونان والجمهورية العربية المتحدة في الوقت الحالي عدد كبير من السلع، ولعل أهم ما تُصدِّره الجمهورية العربية المتحدة إلى اليونان هو: القطن وبذرته والكُسْب والأقمشة القطنية، وأدوات التنجيد والشعير والخضراوات، والموز والإسفنج وعسل السكر والكحول الإثيلي، وفوسفات الجير الطبيعي والبلاط.

[١] آخرها ١٩٥٨م.

وأهم ما تصدره اليونان إلى الجمهورية العربية المتحدة: الزيتون وزيت الزيتون والتبغ والتين والزبيب، والبكلاه والزيوت الحمضية لصناعة الصابون، والرخام وبعض الخامات المعدنية المختلفة، والأدوية والعقاقير والخلاصات النباتية للدباغة، وشفرات الحلاقة والأجهزة الكهربائية والماكينات الحاسبة، وسوستات الملابس عدا سلع أخرى مختلفة.

وفي غضون السنوات الأخيرة التي اقترنت فيها التنمية الاقتصادية في الشرق الأوسط بأزمات سياسية، كان للصداقة اليونانية العربية أثرٌ ملموس في العلاقات التجارية والاقتصادية بين اليونان والجمهورية العربية المتحدة، كما كان لها أثر متزايد في التبادل التجاري بين اليونان وأقطار العالم العربي عامة.

وفي أثناء أزمة سنة ١٩٥٦–١٩٥٧م التي هدَّدت الاقتصاد المصري بعزلة جزئية، استطاعت اليونان على الرغم من قلة مواردها الاقتصادية نسبيًّا، أن تُبدِيَ تضامنها الوديَّ مع الجمهورية العربية المتحدة بتنشيط التبادل العربي اليوناني في حدود إمكانياتها، فقد بادرت اليونان إلى تخصيص جانبٍ مهمٍّ من هذه الإمكانيات؛ لمعاونة الاقتصاد العربي خلال تلك الأزمة، وذلك على الرغم من أنه لم يكن قد مضى سوى وقت قصير على شفائها من جروح الحرب العالمية الأخيرة، التي انتهت بالنسبة إليها في خريف سنة ١٩٤٩م لا في سنة ١٩٤٥م.

وأكبر الجاليات اليونانية في البلاد العربية هي الجالية اليونانية في الإقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة، ولها فيه تاريخ يستحق الذكر.

فقد بدأت هجرة اليونانيين إلى مصر عندما نشبت حرب الاستقلال، التي خاض غمارها الشعب اليوناني؛ للتخلص من الاستعمار التركي، وعلى أثر المذابح المروعة في جزر بحر إيجيا وقبرص، وفي البيلوبونيز، نزح كثيرون من سكان هذه المناطق لائذين بمصر، فاستقبلهم الشعب المصري راثيًا لنكبتهم، مكرمًا وِفادتهم.

ولما استقرَّ بهم المقام لم يجد هؤلاء المهاجرون ما يردُّون به الجميل، إلا أن يبذلوا لها كل ما أُوتُوا من جهودٍ ومواهب، فساهموا مساهمة فعالة في تنمية البلاد، وشاركوا أهلها مساعيَهم في سبيل التقدُّم والازدهار، ونذكر من هؤلاء: جورج مينوتو، وديمتري كاسداجلي، وإخوان سينادينو، وأنسطاس أفيروف.

وعلى مر الأيام نمت الجالية اليونانية، واتَّسعت دائرة نشاطها، وبدأت تعمل لتنظيم أعمالها في مختلف الميادين الصناعية والتجارية والأدبية، وفي عام ١٨٣٣م عين السيد

ميشيل توسيرا أول قنصل لليونان في مدينة الإسكندرية، ثم ما لبث أن أصبح لليونان عدد من وكلاء القناصل في داخلية البلاد، وفي ٢٥ أبريل سنة ١٨٤٣م تم إنشاء أول جمعية للجالية اليونانية في الإسكندرية، وشكلت بعد ذلك عدة لجان للإشراف على المعاهد الدراسية والمستشفيات، ثم شيَّدت أول كنيسة يونانية فتحت أبوابها في ٢٥ مارس عام ١٨٥٦م، وشهد هذا العام تكوين لجنة إدارية للجالية اليونانية.

وفي نحو الثلث الأخير من القرن الماضي كانت الجالية اليونانية تخطو خُطًى فسيحة في طريق الازدهار، وحدث في تلك الآونة أن نشبت الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية، فكان من جراء ذلك أن قَلَّت صادرات أمريكا إلى الخارج من القطن، فرحل عدد من اليونانيين إلى المناطق الزراعية في داخل البلاد؛ لممارسة زراعة القطن هناك، وتكوَّنت جاليات يونانية في المنصورة (١٨٦٠م) وبورسعيد (١٨٦٥م)، وطنطا (١٨٧٠م) وشبين الكوم (١٨٧٠م)، والمنيا (١٨٧٦م) والمحلة الكبرى (١٨٨٠م).

وقد بلغ عدد اليونانيين في مصر عام ١٨٨٢م حوالي ٣٧٠٠٠، ثم أخذ يزداد سنة بعد سنة حتى بلغ في عام ١٩٥٦م قرابة ٨٥٠٠٠.

ومما يجدر ذكره أن التمثيل السياسي بين مصر وبين اليونان، ظل إلى عام ١٩٥٠م بدرجة وزير مفوض، ومنذ ذلك العام رفعت الدولتان تمثيلهما إلى درجة سفارة.

وساهم اليونانيون في الاقتصاد المصري، وهذه المساهمة اقتضت كثيرًا من الجهود الشاقة والأعمال المتواصلة؛ لكي تصلَ إلى النتائج الطيبة التي وصلت إليها. والواقع أنه ما قام في مصر مشروع اقتصادي ذو شأن، إلا وساهم فيه اليونانيون، وقد وفقوا في ميدان الصناعات توفيقًا كبيرًا، بل كانوا الرواد الأوائل لصناعات حيوية في البلاد، سدَّتْ ركنًا شاغرًا ودرَّت على مصر أرباحًا طائلة، وفتحت للأيدي العاملة أبواب الرزق.

ونذكر من هذه الصناعات: صناعة الدخان، وقد أنشأها نستور جناكليس (١٨٦٤م)، وصناعة الكحول، وأنشأها كوتسكا. وفي الميدان السياحي كان ننجوفتش أول من أقام فنادق كبرى في مصر، منها: شبرد وكونتنتال. كما كان لليونانيين نشاطٌ عظيم في إنشاء البيوت المالية والمصرفية، ومنها: بنك الأنجلو إجبشيان (باركليز فيما بعد واليوم بنك الإسكندرية)، والبنك الأهلي المصري، وذلك إلى جانب البنوك اليونانية، ومنها: يونيان بنك، والبنك الأهلي اليوناني، وبنك أثينا، والبنك التجاري (تيبيجيوري وشركاؤه)، أما في الميدان التجاري فلا يتسع المقام هنا لإيراد أسماء البيوت التجارية اليونانية، وما إليها من المؤسسات الأخرى المماثلة.

وننتقل سراعًا إلى ميدان الزراعة؛ حيث تجلَّت العبقرية اليونانية في ألمع صورها وبخاصة في زراعة القطن؛ إذ ابتكر اليوناني المشهور سكلاريدس القطن المعروف باسمه، والذي لم يكن يُضارعه قطن آخر في العالم بأسره، حتى لقد طبقت شهرته الآفاق، وعقد لمصر لواء الزعامة القطنية في الدنيا كلها، وظل محصوله دعامة الثروة القومية في مصر سنوات طويلة.

كما كان لليونانيين الفضل في إدخال أنواع عديدة من الزراعات التي لم تكن معروفة في مصر، ولا سيما من الفاكهة والخضر.

وتشهد المعاهد العلمية والتعليمية المنبثة في أنحاء البلاد، بما لليونانيين في مصر من نشاطٍ كبير في الميدان الثقافي، ومن معالمه البارزة: مدرسة الفنون والمهن التي أنشأتها أسرة سلفاجو في الإسكندرية، وتحوَّلت فيما بعد إلى مدرسة التجارية اليونانية، وكذلك مدرسة إكسيناس بباب اللوق في القاهرة، واسمها يدل على مؤسسها، أما أقدم المدارس اليونانية في مصر فهي المدرسة العبيدية التي أنشأتها الأسرة العبيدية (اليونانية) خصِّيصى للتعليم المجاني.

وضرب اليونانيون بسهمٍ في أعمال البر والرحمة، فأسسوا كثيرًا من المستشفيات والملاجئ، وفي طليعتها المستشفى اليوناني بالقاهرة، ومستشفى كوتسيكا بالإسكندرية؛ هدية لمصر وعرفانًا بفضلها.

الشاعر واليونان

لم يكن الشاعر بيرون، ولا بروك، هما وحدهما اللذان أحبا بلاد اليونان وامتدحا جمالها في شعرهما، وضحى كلٌّ منهما بحياته من أجلها، إن كثيرين غيرهما من الكتَّاب والشعراء لا يملُّون من الكتابة عن اليونان، برغم كثرة ما كتب عنها وعن تاريخها، وعن حضارتها وعن جمالها وعن آثارها وعن أهلها.

وكان آخر الذين كتبوا عن اليونان الأمريكي إيلري سدجويك، الذي أُغرم بالأسفار والمشاهدات منذ سنواتٍ طويلة، حتى بعد أن أصيب بمرضٍ يقعده عن الحركة، فقد ظل يواصل رحلاته من فوق مقعد متحرك، كتب يقول:

> إن اليوناني لا يعرف الحسد، فإذا كان لديك سيارة والفلاح اليوناني ليس لديه مثلها، فإن أول ما يخطر على باله هو قوله: «ما أسعد حظنا؛ لأن واحدًا منا قد أسعده الحظ بسيارة!»
>
> وكرم الضيافة شيء مقدس عند اليوناني؛ إنه يقدم لك كل ما لديه ويرحب بك في كوخه الصغير ذي الغرفتين، الذي لا يكاد يتسع حتى للموقد!
>
> ومنذ أن وهبت الإلهة «أثينا» الزيتون لليونانيين، أصبح الشعب اليوناني زراعيًّا، ولعل الأدوات التي قدمتها لهم الإلهة يومئذٍ لا تكاد تختلف في شيءٍ عن الآلات التي يستخدمونها اليوم.
>
> إن فأس اليوناني أشبه بالمطرقة، يغوص بها الفلاح في الأرض ثم يجذبها نحوه، والتربة اليونانية صلبة كالحجر الصوان، وهناك صعوبة أخرى تواجه الزراعة في اليونان هي «العنزة»، فإن كل بيت في الريف يحتفظ بعنزة، وكل عنزة لها أسرة؛ ولهذا قلَّ أن يسلم أي محصول غض من هذه العنزات! ومما

يزيد الطين بلة للاقتصاد اليوناني، أن العنزة تعيش على لا شيء، والأمة كلها تعيش على العنز!

وفي دولةٍ لا تعد البقرة فيها من الأشياء الشائعة، يصبح لبن العنزة ضرورة أولية للحياة، أما كيف يتحمَّل اليونانيون عناء العمل بهذا النزر اليسير من الطعام الذي يتناولونه، فأمر يثير حيرة علماء التغذية!

إن الإفطار هناك عبارة عن ملء فنجان صغير جدًّا من القهوة مع كسرة من الخبز الجاف، والعشاء غالبًا كمية وفيرة من الأعشاب والحشائش، وقد قيل لنا: إن هناك ٣٦ نوعًا مختلفًا منها يصلح للأكل، وأنت ترى أكياسًا ضخمة منها أمام حانوت البقال، ويتناولها العامل مع بعض النبيذ الخفيف.

ومن أنواع الشراب اللاذع الشائعة في اليونان «الرتسينا»، وهي عبارة عن نبيذٍ حريف، مشبع بالراتنج، وهو السلوى اليومية لأغلب اليونانيين.

إن الجمال والتاريخ يحيطان بالمسافر في اليونان، والحديث يتحول بصورةٍ طبيعية إلى الكلام عن الحفريات والتنقيب عن الآثار.

وفي «فترينة» في المتحف توجد أمثلة من بعض الأدوات، وهي أغطية القواقع التي كانت تستخدم في الاقتراع، وهذه القواقع غير قطع من الخزف صقلت بطريقةٍ ملائمة؛ لتتيح للمقترع الإعراب عن رغبته كتابة.

وفي ميدان السوق القديم عدد كبير منها عثر عليه، يحمل اسم «تيموستكليس»، وقد وضعت أصوات المقترعين على نفيه أو إبقائه في قدورٍ خاصة، والطريف أنه تبين أن عددًا من هذه القواقع كان مكتوبًا بخط واحد متماثل؛ مما يثبت أن عملية الاقتراع كانت زائفة مدبرة!

وكثيرًا ما كنا نقف خلال جولاتنا عند بعض الأكواخ، وكان مرشدنا صديقًا ودودًا من اليونان؛ ولهذا كان الترحيب بنا صاخبًا: قبلات على الوجنات، ومصافحة حارة باليدين، وقسم على الإخاء، يتبعه ذبح للدجاج مبالغة في الاحتفال بنا!

وفي إحدى القرى الفقيرة، كنا نبحث في يأس عن مكانٍ مريح نقضي فيه ليلتنا، عندما سمعنا فجأة صيحات مرح، جعلت قلوبنا تدق بسرعة، وفي وسط ميدان المحطة، كان هناك فريق من الأهلين يحتفل بالليلة السابقة لزفاف عروسين، أو «ليلة الحناء» كما يسميها الناس في مصر، وقد راح عازفو القيثار يعزفون بقوة أبدع ألحانهم، واجتمع الرجال

والفتيات يرقصون في حلقاتٍ منفصلة، بعضها صاخب وبعضها هادئ رزين، والكل يغنِّي ويصفق في نفس الوقت، بينما أشاع برميل الرتسينا البهجة والسعادة على الاحتفال، وكان البعض يرقص وقد أمسك بقنينة الخمر في يد، وبالقدح في اليد الأخرى! لم يكن هناك غير شراب وراء شراب، وازداد المرح عنفًا، حتى إذا ما بلغ الذروة، وصل موكب يشرف ملكةُ سبأ أن تسير به!

كان هناك جوادٌ وثلاثة بغال وحمار، تحمل كلها أثاث العروس وهدايا زفافها، فتكدَّس فوق ظهر الجواد حَشِيَّة من القطن وست وسائد و١٢ غطاء، أما البغال فقد حملت صندوقين متماثلين من صناديق العرس، وأربعة مقاعد ومائدة والأواني الخزفية، وحمل الحمار فوق ظهره أكداسًا من السجاجيد والشيلان تزيد على ضعف حجمه، وفوق الجميع هدية الهدايا: مهد للطفل!

كان الجميع في سرور حماسي، وعندما أنزل المهد الصغير أمام باب الكوخ الخالي، ارتسمت بسمة ثقة على شفتي كل عروس في القرية.

وكانت هناك هدية أخرى ثمينة جدًّا، لا يمكن ائتمان البغال والحمير عليها؛ ولهذا جاءت في المؤخرة تهتز من جانبٍ لآخر، وقد حملها أحد ضيوف الفرح وهو يلوح بها عاليًا، لقد كانت مرآة طويلة كاملة!

إن السعادة لا تزال تغمر الجو، هنا في اليونان، عبر القرون الطويلة، على الرغم من كل ما عانته البلاد من احتلال الأتراك والروس والبلغاريين، وحرث للأرض غير المجزية، هنا الهناء غير المصطنع، الذي لا تستطيع كل سيارات العالم وأجهزة الحياة المدنية وملاعب الجولف أن تخلقه.

هنداوي